مدونة ابو عبدو

بلو

محمود توفيق

قصص

بلْو

بلو

قصص

محمود توفيق

الطبعة الأولى ٢٠١٣.

(c) دار ميريت

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٢٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)

www.darmerit.net

merit56@hotmail.com

الغلاف: محمد سيد

المدير العام: محمد هاشم

رقم الإيداع: ٢٠١٢/١٥٥٥٧

الترقيم الدولي: 978-977-351-645-7

محمود توفيق

بلْو

قصص

دار ميريت

القاهرة ٢٠١٣

بلـو: كلمـة إنـجليزيـة تعنــي حالـة خاصــة مـن الـشجن الممـزوج بمتعة التأمل.

"الدكتور قال هبقى تمام
بس ده أي كلام
لا عندي مغص ولا زكام
وبرضو موش عارف أنام
الدكتور قال هبقى تمام
بس أنا مبضو–و–ون..."

من أغنية "كايرو بلوز" لفرقة "بانانا ايجيبت"

إلى هلجا ومحمد

شوارع الثورة

منذ عام أو اثنين، وفي صرعة من صرعات وجودنا المخزي، تسلقنا أنا وكريم جدار إحدى بنايات وسط البلد وانتزعنا الافتة الزرقاء الالوميتال التي تحمل اسم شارعها. ولما كنا شبابا، فقد توسمنا في فعلتنا خطوة أولى لمشروع تمردي مهيب، فأخذنا نتشاور ونخطط، ونستدعي التجارب التاريخية والنظريات الفكرية. لكن من سمة شبابنا آنذاك أيضا ألا يخرج أي مشروع نضالي عن طوره الجنيني.

كنت أنا أرسم في خيالي محاكاة لما حدث في "ربيع براغ" عام ٦٨، عندما أغارت الدبابات السوفيتية على العاصمة التشيكية لقمع حركة تظاهرات عتيدة، فما كان من الأهالي إلا أن استبدلوا لافتات الشوارع بعضها ببعض، فوضعوا الغزاة أمام متاهة حقيقية.

يا بنتي، وهو مين بقى إن شاء الله اللي هيخشلك بالدبابات هنا؟" كان هذا هو رد كريم المحبط، وكانت هذه هي سمة جدالنا الاعتيادية، فلا نشترك في الرؤية أبدا، وإن كنا نجتمع على الرغبة في تسجيل إحباطنا زاعقا على سطح المدينة.

قلت وقد جرح كبريائي: "على فكرة الجيش دخل هنا ف٧٧!"

"أيوة يا بنتي بس ده جيشك، تقولش موش هيبقى عارف أسامى الشوارع، ولا هيبقى ماشي بخرايط!!"

ابتسمت ابتسامة خبيثة وقلت: "انت يعني مثلا عارفها؟ طب الشارع إللي هناك اسمه إيه؟"

"... ده... ده الفلكي..."

ازداد ابتسامتي اتساعا لما بدا على رده من ارتباك، قلت بثقة: "موش ده اللي أنا شاورت عليه... اللي هناك ده يا حبيبي"

قطب كريم حاجبيه سخطا وقال: "على فكرة انت كل حاجة كده لازم تحوليها لعمل تخريبي. أفعالك دايما موجهة ضد حد. أنا موش كدة. أنا نفسي الشوارع كلها تبقى من غير أسامي خالص. والواحد يسرح كده في الملكوت وعمره ما يفكر يقول أنا فين"

أتذكر كريم كثيرًا هذه الأيام. هاجر إلى كندا ولم يعد حتى بعد أن تغيرت الأوضاع السياسية. أتذكره تحديدا كلما اندلعت مواجهات جديدة بوسط البلد. أتابع خارطة الاشتباكات على تويتر بعصبية:

"بلطجية في شارع نوبار"

"اللي رايح التحرير يدخل من محمود بسيوني، الحتة دي أمان".

عندها تتحول مسألة معرفة أسماء الشوارع إلى مسألة حياة أو موت.

وفي ليلة من هذه الليالي السوداء، كنت واقفة على مدخل شارع يفضي إلى الموت. فاجأني بمكالمة. قال وفي نبرة صوته مسحة وهن: "انتِ فين؟"

تلفتُّ حولي لحظة ثم تذكرت حوارنا القديم، فقلت بنصف ابتسامة: "والله موش عارفة. أنا فأول شارع خارج من ميدان الفلكي. بس اليافطة موش موجودة. موش عارفه اسمه إيه."

ضحكنا معا. لكنها ضحكة لم تخل من مرارة.

هابي إيندينج

شاءت الأقدار أن يكون ميدان مصطفى كامل، دون كل ميادين المعادي المتشابهة، هو ملتقى أيام الدراسة والصعلكة، فحضر الزعيم الكبير شاهدا على أكثر لحظات حياتنا عبثًا، وإخفاقًا، ومجونًا. والآن وقد مضى على تلك الأيام ما مضى، وابتلعتنا الحياة ولفظتنا في مختلف أنحاء المسكونة، لاتزال أقدامنا تحفظ الطريق، تحملنا بين الحين والآخر، ولو نياما، عبر متاهات الحي الراقي إلى هناك.

اليوم مناسبة خاصة، فقد عاد صديقنا حسام من سفرة طويلة دامت قرابة العشر سنوات قضاها في ألمانيا ثم تايلاند، وكانت أخباره قد انقطعت تماما منذ أن انتقل إلى الأخيرة، إلى أن فاجأنا باتصال ورغبة ملحة في اللقاء.

"تفتكر اتجوز أخيرا؟" سألني تامر بينما نحن ننتظر وصول ضيفنا الطارئ، وأعيننا تجول في الميدان لترصد ما

حدث به من ترميمات: دكك خشبية جديدة، أربع نخلات شاهقة العلو تحدد مساحة الجلوس الصغيرة في قلبه من أركانها الأربع كأعمدة معبد إغريقي قديم، وأسوأ ما في الأمر (كنا أنا وتامر قد اكتشفنا بنظرة معبرة تبادلناها أن كلينا يفتقد الميدان القديم بهيئته الرثة المشجعة على ارتكاب الحماقات)، أسوأ ما في الأمر أربعة عواميد إضاءة بعدد واحد بين كل نخلة ونخلة تكاد تكفي لإضاءة استاد القاهرة، فما بالك بساحة تمردنا الصغيرة، التي أضحت بذلك مسلوبة من كل خصوصيتها. فليكن الله (أو من يحل محله من آلهة المحظور في مثل هذه الحالات) في عون شباب هذه الأيام. بل أخالهم على الأحرى في غنى عن دعواتي – هذا زمن التوبة، زمن الحجاب والذقون وعداد السيئات والحسنات الذي يعمل بلا كلل، ولا مكان فيه لميدان معتم الضوء تختلس فيه القبلات ورشفات البيرة ويلتقي فيه الجلد بالجلد للمرة الأولى.

ضحكت لما أثاره سؤال تامر من ذكريات، وقلت: "بس هيبقى اتجوز الإيطالية ولا التركية ولا الألمانية ولا..." وشاركني تامر الضحك. لطالما كان مثار مزاحنا، حسام. كان شابا ضخم الجثة يذكرك بدب قطبي مهيب، لكن على ما تثيره هيئته من رهبة كان طيبا إلى حد السذاجة، لذا كان من الطبيعي أن يتحول منذ أول يوم لنا في الكلية إلى محط دعاباتنا وسخريتنا الشبابية الفجة. ولم تنقطع العادة بعد تخرجنا، ولم يشفع له أنه كان أكثرنا تفوقًا في سوق العمل بلا منازع. مدير تسويق

لشركة أوربية – تختص فيما أظن بإنتاج مستحضرات التجميل – مركز لا بأس به، لا بأس به على الإطلاق، تنكمش أمامه وظيفتانا أنا وتامر وتختشي على دمها وتتكسف، فأحدنا (تامر) يعمل محاسبا بأجر هزلي، والآخر (أنا) يجري على أكل عيشه كمندوب مبيعات لشركة تأمينات أجنبية، تدفع مرتبات مخزية لموظفيها لكن تغريهم بدهاء شديد بنسبة ٣٠% من أرباح مبيعاتهم، عرض سخي ربما، لكنه يعني في حالة شاب محدود المواهب مثلي (هكذا يزيد يقيني يوما بعد يوم) تساوي مبيعاته تقريبا زيرو، أنك تكتفي بالمرتب الأساسي ومعاك ربنا.

أيضا، كلما تذكرنا حسام، تتمثل لنا حقيقة أنه خرج من عش أسرته صغيرا وعاشر شعوب الأرض كافة كحلم مبهر نغبطه عليه سرا، نحن القاهريين حتى النخاع، لم نبرح بيت الوالدين إلا يا حيا الله بعض الرحلات السياحية إلى أوروبا لا تروي ظمأ المشتاقين إلى المغامرة والحرية.

أما أحواله في بلاد الغربة فكانت من أهم دواع تهكمنا في الأعوام الأخيرة – وتحديدا علاقاته بالنساء هناك. كان من فور سفره دائم المراوغة والتهرب عند سؤالنا عن "اللي بالي بالك" ودائم التحجج بكثرة المشاغل ورداءة الطقس إلى آخره من الكلام الذي حدسنا وراءه خجله الفطري من التواصل مع الجنس الآخر. وسرعان ما بدأت حلقة جديدة من مسلسل السخرية المعهود، فتوَّجه تامر في إحدى المكالمات الهاتفية بصوت مسرحي رخيم "سفير الحب"، وشرع يذكره بمسئوليته

تجاه من خلف من أقرانه، بل تجاه الأمة العربية والإسلامية أجمع، بسبي ما تيسر له من الأوربيات، ورفع راية بلاده خفاقة على صحراء عريهن، أو كما قال: "علشان يعرفوا إننا موش بتوع ذقون وإرهاب وبس!"

وبالرغم من أن أيا من هذا الكلام لم يقل بنية حقيقية على التحريض، ولم يحمل حتى ذرة أمل في أن ينقلب حسام الخجول المستضعف "سفير حب" بحق، إلا أننا فوجئنا بعد فترة بأخبار عن علاقة بين صديقنا وفتاة ألمانية – "علاقة شريفة، كما شدد، "موش زي مانتوا فاكرين يا ولاد الكلب، أنا هاتجوزها!"، تلتها بعد مدة وجيزة أنباء عن علاقة مع فتاة تركية، ثم أخرى بإيطالية، ثم فلسطينية من مواليد ألمانيا... لغز غريب، سهرنا عليه بضع ليال، لكنه ما لبث أن تبخر في اكتشاف أبسط من أي احتمال داعبته عقولنا. "الواد بيكذب علينا، فاكرنا كدة هنعتقه" – هكذا أعلنها تامر ذات ليلة وانتهى الأمر، ولم يفلح حسام – مهما أصر وحلف أيمانا ومهما ساق من دلائل وبراهين متمثلة في أدق تفاصيل علاقاته المتعاقبة – في إثبات العكس.

٢

هبت نسمة خفيفة عبثت بقمم الأشجار فوقنا. قلت وقد غمرني فجأة إحساس غير مبرر بالكآبة: "وأهو الخريف ابتدأ يا سيدي..."

"وانت إش عرفك يا فالح، ما الجو زي الفل أهه..."

"الحاجات دي الواحد بيحسها أوتوماتيك..."

"طب بس بس بلاش غم وحياة أمك"

صمتَ لحظات داخلته خشخشة ورق البفرة وفحيح قرش الحشيش وقد نشبت النار فيه. ثم تامر وهو يسحب الأنفاس الأولى بطريقته المسرحية، يفرقع بشفتيه كلما انتزع السيجارة منهما، ويخرج الدخان بنفخة قوية حارة نافذة الصبر. لم يكن ممن يطيقون الصمت، أو الانتظار.

انتهزت فرصة انشغاله بالسيجارة وجعلت أدرس ملامحه بتأنٍ، أو على الأحرى ما تركته السنون على جسده من آثار، لأعود فأقارنها بهيئتي وما آلت إليه. اكتشفت بشيء من الارتياح أن قوامه الرياضي الممشوق لم يسلم هو الآخر من رواسب الزمن، بوادر كرش تظهر نتوئاته وتختفي حسب جلسته تحت قميص "البولو" البنفسجي، أكياس جفون منتفخة في وجهه تشي بثلاثين عاما من الدلع والسهر والمغامرات، وشعره الناعم المموج – سلاحه الفتاك، كما درج على تسميته – شهب

وبدا في تلك اللحظة أشعث كأنما لم ير الماء والشامبو منذ شهور. فيما عدا ذلك، مازل يحتفظ بذلك الفائض المهول من الحيوية والطاقة، فلا تقف له ساكنة طوال جلسته، يقرع إيقاعا لاهثا برجليه تارة، ويعبث بعلبة السجائر حتى يدمرها تارة أخرى، وليس بالنادر أن تستحوذ عليه فكرة أو خطة ما فينهض ويقفز في مكانه في نشوة وتحفز ويظل يرددها على مرافقيه ويزن ويثرثر حتى يذعنوا لرغبته ويشاركوه في تنفيذها.

قال: "مساء الخيبير" وعرض علي السيجارة، إلا أنني هززت رأسي رافضا، ففي اللحظة ذاتها رمقني خاطر كابوسي. رأيتنا نحن الاثنين وقد شخنا وضرب الشيب في شعورنا وافترس شلل الرعاش أطرافنا، بينما الميدان كما هو مكان لقائنا المعهود، وتامر يميل نحوي بنفس الحركة ونفس الأداء، ويقول بصوت رخو الآن بفعل السن: "مساء الخيبيبير" وربما يعقبها بسعلة جافة من رئتين قضت عليهما ستون عاما من التدخين.

قلت بشيء من القرف لم يخف على تامر: "ما بقتش جايبة همها خلاص... نفسي حاجة روشة تحصل، شوية أكشن، حاجة جديدة..."

تامر، بنبرة حياته المعهودة، قاوم انفعالي بابتسامة عريضة وقال: "طب ماتيجي نشوفلنا مزّتين ننيكهم...!"

أشحت بيدي بقوة وقلت: "ملعون أبو أمك، انت معندكش غير الحاجتين دول؟ نضرب وننيك. نضرب وننيك..."

تامر نظر إلى كما لو كنت كائنا فضائيا يحدثه بلغة غير مفهومة. صمتنا لحظات. دائما يصعب على في مثل هذه المواقف. أحسه كجرو صغير يقف أمامي بلسان لاهث وأعين لامعة يطلب اللعب. حتى عندما يمارس دعاباته القاسية على حسام أشك أنه يعي ما قد يسببه للطرف الآخر من ألم. والآن آتي أنا وأعنفه دون حق، أو سبب حقيقي. أحسني أيضا متعاليا عليه دون أدنى حق، فأنا أشبهه في الكثير من الأشياء، ولم يكن لي أبدا صديق أفضل منه.

ربّت على كتفه وقلت: "معلهش يا مان... إن جيت للحق بقالي بتاع سنة كدة ما نكتش..."

لم يرد. كان قد مال برأسه إلى الوراء ويرقب دخان السيجارة وهو يتصاعد من فمه في شكل مخروط أفقي. استطردت قائلا:

"يعني... موش إني يعني ماعنديش رغبة... بالعكس... بس الموضوع يا أخي ما بقاش زي زمان... الواحد ما بقاش ينبسط من الحاجات ال"كاجوال" دي... موش كده؟ ياللا بقى حسن الختام... هاها" حاولت قدر المستطاع تحميل كلامي الختامي نبرة سخرية، لكنني فشلت وظهر جليا أن مزاجي كان قد سقط في بئر كئابة عميق. نفخت بحرارة وقلت: "هات يا عم السيجارة دى، ملعون أبو دي عيشة..."

ضحك تامر وقال: "أيوة كده!"

هـزززت رأســي إيجابـا بـبطء ثـم رددت فــي شـرود: "أيـوه كده..."

٣

اقتحم مخروطا ضوء الميدان ولسعا عينينا لسعة خاطفة. ثم أزيز عجل سيارة تتوقف فجأة عن سرعة عالية. حسام.

لم يفاجئنا كثيرا إعلانه بأنه عاد بزوجة تايلاندية. وفورا عادت عجلة السخرية إلى الدوران.

"... تيلانديـة..." قالها تـامر بنـصف ابتسامة تحمل نـذر هجوم وشيك، وضحكت في نفسي عندما لاحظت كيف انتفض جسده كله وتصلب تأهبا للانقضاض، قال: "الله على الدلع... موش هما دول بتوع التدليك أبو هابي إيندينج ده؟"

قلت: "هابي إيه يا خويا؟"

"هابي إيندينج ياد، يعني تنام على بطنك، والبت من دول تخدك الأول دور تدليك معتبر، وبعدين تقولك اتفضل نام على ظهرك، تحب أعملك هابي إيندينج؟ تقولّها آه. فتاخد بتاعك في إيدها، وأديله بقى... "

حسام ضربت في وجهه حمرة ساخطة فصار لونه كلون حبة طماطم صيفية كاملة النضج. زعق: "هو انتو يا ولاد الكلب موش هتبطلوا شغل المراهقين بتاعكوا ده يا ولاد دين ال..." إلا أن الكلمات الأخيرة اختفت في لجلجة وحشرجة وإشاحة يد بائسة.

قطب تامر حاجبيه ونظر إلى حسام نظرة ممتعضة، ثم، كما هي عادته في مثل هذه المواقف، قاوم رفض الآخرين لدعاباته بالتمادي فيها، فتجاهل غضب نده واستطرد، موجها كلامه إلي:

"ما تيجي ياد نجرب الموضوع ده؟"

"قصدك ال... هابي هوبا؟"

"أيون..."

فركت رأسي محتارا: "موش عارف يا مان... أصلا هنلاقيه فين، موش عادي كدة يعني"

"والله دول بقوا مرميين في كل حتة. ما صادفش عديت على محل تدليك أسيوي في المعادي يعني؟"

"حصل"

"أهو في ٩٠ في المائة من الحالات هتلاقي عنده هابي... " وبدل الكلمة الثانية صنع قبلة مفرقعة في الهواء

وحرك قبضته صعودا هبوطا إشارة إلى ما سيكون في انتظارنا إذا ما حطينا الرحال إلى أحد الأماكن المذكورة. "شراميط عصر العولمة يا استاذ. والدفع بالدولار..." ضحكت رغما عني.

فجأة تجمدت ملامح تامر كمن تمرق في ذهنه فكرة جهنمية. قال وقد بلغ انفعاله مداه:

"انتوا ياد موش عندكوا شغالة آسيوية في البيت؟ موش بعيد نعرف نقنعها تعملنا واحد..."

فاجأني باقتراحه فرددت متعلثما: "موش عارف يا مان..."

"ياللا بقى، ياللا ياللا ياللا ياللا ياللا"

"ياللا إيه بالضبط، الشغالة ولا بيت الدعارة؟"

"أي حاجة... الشغالة؟ وبعدين تعالى هنا: موش إنت إللي لسه قايل عاوز أكشن؟!"

"ده صحيح، هي الفكرة نوت باد، بس همم..."

لم يفتنا أن حسام انسحب من الحديث منذ انفجر في وجه تامر، لم ينبس بكلمة ولم يتماد في محاولة رد اعتباره. وعندما أدرنا وجهينا إليه، وجدناه وقد استكان بظهره إلى إحدى الدكك الخشبية، عاقدا ذراعيه أمام صدره وعلى وجهه ابتسامة استهزاء وتعال كبيرة. التقت عينانا بعينيه، انتظر لحظة مستطعما

الصمت المشحون وعلامات التساؤل على وجوهنا، ثم قذفنا بكلمة واحدة أسقطتنا من علياء سماوات تهييسنا لنرتطم ونتهشم على أرض الواقع.

قال: "يع".

كلمة واحدة، وبسهولة مستفزة استدعى حسام موروث مجتمعي تجسد فيه "الشغالة" اخفاق الرجل الشرقي أمام الجنس، ذلك الغائب دائما والحاضر دائما أيضا. "يع" هذه سقطت بيننا كالقنبلة وقسمت الساحة والميدان والعالم كله إلى قسمين: قسم الفاشلين ونمثله أنا وتامر، وقسم آخر يضم حسام، يرتدي البذلة ويتزوج – أو على الأقل يتطلع إلى الزواج وإن كانت أخباره بهذا الصدد غامضة وغير موثوق فيها – ويصدر أحكاما قاتلة ونهائية على تصرفات الفاشلين أمثالنا: "يع".

ورغم انني لم أكن قد اقتنعت تمام الاقتناع بفكرة تامر أو حتى تأكدت من عدم كونها تهييسة من تهييساته المعتادة، فقد وجدت نفسي أدافع عنها أمام حسام بحماس، وكنت في حقيقة الأمر أدافع عن صورتي أمام نفسي.

قلت: "على فكرة اللي انت بتقول عليها "يع" دي بتستحمى كل يوم، أومال احنا جايبين شغالة أجنبية ليه؟ وبعدين دي مرتبها قد مرتبي مرتين..."

وانتبهت بارتياح أن الأدرينالين عاد ليضخ بقوة في جسد تامر، فراح يدعم موقفي بقفزاته الهائجة ثم زعق فرحا: "طب عليا النعمة لانروح نجيبها فورا، هو احنا هنغتصبها يعني؟" ثم توقف فجأة عن الحركة، وبنظرة ملاكم اكتشف نقطة ضعف خصمه ويستعد لتوجيه الضربة القاضية أدار وجهه لحسام وقال: "بس يا ترى هانجيبها نروح بيها فين؟ انت صحيح ياد يا حسام ما كنتش ناوي تورينا بيتك الجديد؟ ولا هتطلع جبان كالعادة؟"

كانت الضربة القاضية بالفعل، لم يقو حسام على صدها فتلجلج قائلا بصوت مهزوم:

"بس... بس... ده انا مراتي في مشوار وزمانها راجعة..."

ضحك تامر ضحكة مجلجلة رجت المكان، ثم مد يده ليجذب حلمة اذن حسام بقوة، قال: "انت ياد موش هاتحرم تضحك على صحابك بقى... مراتك إيه... انت اتجوزت بجد؟"

"عليا النعمة زي ما بقولك كدة!"

زاد تامر من ضغطه حتى بدأ حسام يتلوى من فرط الألم.

"ياد"

"أيي، طب بس خلاص خلاص، موش حقيقي الكلام"

"لا إله إلا الله، ما كان من الأول، عالم غريبة جدا"

"ممكن تسيب ودني بقى"

"طب قول حرمت"

"حرمت"

"قول حرمت أهييس على عمو تامر"

"كس أمك... أووو"

٤

عندما ركبنا سيارة حسام غمرني احساس كمن يفيق مرتاعا من حلم شديد الواقعية، ولا يعرف للوهلة الأولى هل كان كابوسا أم أن واقعيته المفرطة وحدها تكفلت ببث الذعر في نفسه. كدت أصدق هناك في الساحة أن تغييرا جذريا طرأ بالفعل على العالم – حسام يغضب ويزعق ولا يسكت عندما يأخذ على قفاه؟ بل تصل به الجرأة إلى الحد الذي يسخر فيه من تامر ومني؟ لكن بقدر ما زلزلت نذر التغيير هذه ركائز عالمي... بقدر ما استشففت في ركن خفي من المشهد بارقة أمل – ألست في الحقيقة رافضا لحياتي وما هي عليه، أليس التغيير عين منتهاي؟ وحسام إذن بشير غد أفضل، المخلص وليس المنغص ثقيل الدم الذي يفسد علينا دعاباتنا.

كنت على وشك الصراخ: "ستوب!" ثم أعود بهما إلى الميدان لنعيد تمثيل المشهد كله لكن بصيغة أفضل، كأن أقول: "حسام، موش معقولة، حمد الله على السلامة، اتجوزت؟ لا يا راجل! ألف ألف مبروك!"

فيرد: "عقبالك يا سيدي"

فأقول: "من بقك لباب السما! و قلت إن مراتك تايلاندية؟ يا سلام، ده شعب جميل جدا. أنا أسمع يعني. ماشاء الله عليك. والله دايما رافع راسنا ياد يا حسام!"

شئ من هذا القبيل.

إلا أن الأحداث تعاقبت بسرعة، ولم أكد أقف على حقيقة أحاسيسي حتى كان كل شيء قد عاد إلى ما هو عليه. بالسرعة نفسها التي انكسر بها عالمي المألوف وتفتح على طيف لانهائي من الاحتمالات الجديدة، بالسرعة نفسها انقبض الحلم، التأم الجرح وعاد كل شيء كما كان.

جلست إلى جانب حسام وجلس تامر خلفنا. حسام بدا متوترا للغاية بالرغم من محاولته التماسك، فكثر تزحزحه على كرسيه وتعديله لظهر المقعد، عملية ربط حزام الأمان وحدها استغرقته دقائق عديدة، قضاها يحاول إيلاج إبزيم الحزام في المكان المخصص لذلك بأصابع مرتعشة، لكنه ظل يخطئه حتى ضرب على عجلة القيادة بانفعال وزعق: "شيت!"

أما أنا فقد بدأت أحس بتأثير المخدر يصل إلى ذروته، كبطانة من قطن طبي تملأ رأسي من الداخل وتمتص حدة الأفكار، وصعقات فرحة وضحك يسريان في بدني بين الفينة والأخرى دون سبب يذكر. أشعلت سيجارة وأغمضت عيني متلذذا وسلمت أمري للعربة التي ما فتأت تنحرف يمينا ويسارا في تعاقب سريع لتخرج بنا من متاهات الحي. آخر ما أذكره قبل أن أشرد في عالم آخر مفرقع الألوان صوت تامر يقهقه، ثم يهوى بكفه على قفا حسام ويقول، بسادية من يركل ضحية مسجية على الأرض متلذذا بتعذيبها: "قول ياد موش هاكذب على عمو تامر تاني! قول موش هاكذب على عمو تامر تاني!"

سماعي

كنت لا أزال جديدا على المدينة، ومنبهرا بأضوائها ومتاهاتها واستعداد نسائها التام للدخول في علاقات غير محددة الملامح. حصلت على وظيفة مؤقتة كمتدرب في إحدى الإذاعات المحلية. وكان من أول المهام التي كلفت بها الذهاب إلى إحدى البحيرات المحيطة بالمدينة والتقاط خلفيات صوتية لأناس يتحممون ويلهون ويستمعون إلى الموسيقى ويقرعون زجاجات البيرة – ليستخدمها المحرر بعد ذلك كخلفية لخبر عن موجة الحر الشديدة التي داهمت البلد. دس ميكروفون أسود نحيف في يدي وقال "فقط تخيل أنه كاميرا وصوبه نحو كل شيء مثير تراه أو تسمعه. وعامله برفق فهي آلة حساسة جدا."

عندما عدت إلى مبنى الإذاعة – غارقا في عرقي وملابسي مبتلة تلتصق بجسدي – ذهبت مباشرة إلى الكانتين. كنت في حاجة ماسة إلى زجاجة مياه غازية كبيرة.

وجدت الصالة فارغة إلا من شاب، لعله يكبرني بعامين أو ثلاث، يجلس وحده على طاولة في الركن البعيد من الغرفة. لم أكن متأكدا، لكن بدر إلى ذهني أنها لم تكن المرة الأولى التي أراه فيها يجلس هناك أثناء فترة الغذاء – دائما وحده. قررت أن انضم إليه.

حييته وجلست. رفع رأسه ببطء ونظر إلى. لكنه لم يرد التحية. كان قوى البنيان، شعره أسود وكثيف تتخلله بعد الشعيرات البيضاء. لكن فاجأني لون وجهه الشاحب وعينيه النصف مغلقة، كما لو كان في مكان ما بين الصحوة والنوم. بدا لي كأحد هؤلاء الشبان الذين يعيشون الحياة بسرعتها القصوى، ثم يشيخون قبل أوانهم.

قلت في نفسي: "حسنًا إذًا. ربما من الأفضل ألا نتكلم. في الحقيقة لست في حاجة للاستماع إلى الافكار الكئيبة لشاب ضل طريقه في الحياة. سأشرب مشروبي وأعود إلى العمل."

فرشت الميكروفون وجهاز التسجيل أمامي وأدرت غطاء الزجاجة البلاستيكية حتى أخرجت فحيحا كفحيح الأفاعى. فجأة قال: "أتسمح لي؟" وأشار بإصبعه إلى الميكروفون الموضوع على الطاولة. أدرت رأسي ناحيته. كانت عينيه قد اتسعت عن آخرها وتحمل نظرة قلقة جائعة كنظرة مدمن سابق في لحظة إغواء خطرة. هززت رأسي إيجابا بتردد. أخذ الجهاز وكمن يداعب طفلا صغيرا حمله بين راحتيه، اختبر وزنه وملمس

جسده الحديدي والقطعة الإسفنجية الصغيرة على رأسه. قال "آلة رائعة، أليس كذلك؟"

قلت "أكيد، على الرغم من أنها المرة الأولى التي استخدمها فيها!"

"إنه ميكروفون ستيريو شديد الحساسية، يستطيع أن يلتقط أدق الأصوات من على بعد مئات الأمتار".

ثم عادت ملامح الأسى لترتسم على وجهه. قال: "هذه الآلة كانت في يوم من الأيام من أعز أصدقائي... إلى أن... قال: "إنها قصة طويلة. هل تريد أن تسمعها؟"

لم أكن متأكدا تماما. ربما تسرعت قليلا عندما وافقت.

قال: "القصة تبدأ بأولى مهامي الصحفية الكبيرة – بعد عام تقريبا من وصولي إلى هذه المدينة. كنت حينها في مثل عمرك تقريبا. لن أخفي عليك أنني لم آت إلى هنا بمحض إرادتي، بل جئت هربا من قصة حب مأساوية كانت قد طرحت بي أرضا تماما. على أية حال لم يمض وقت طويل حتى استرجعت طاقتي وعدت أقبل على الحياة من جديد.

"في ذلك الوقت طلبت مني الإذاعة إعداد كولاج صوتي للمدينة. ولأنني لم أكن بعد قد وجدت فرصة حقيقية للتعرف على محل سكني الجديد فقد أقبلت على المهمة بنشاط وفضول غير عاديين. أسبوع كامل همت فيه على وجهي، مسلحا

بميكروفون وجهاز تسجيل، قطعتها من شرقها إلي غربها ومن شمالها إلى جنوبها وسجلت على أشرطة كاسيت كل ما كان يعترض طريقي من أصوات. أحيانا كنت أقف في مكان ما يضج بالحياة وأغمض عيني وأستمع إلى الأصوات التي تقترب وتبتعد من كل الجهات، أو أترك الميكروفون في مكان غير مرئي لساعة أو ساعتين وأذهب، وأنا في داخلي أحترق شوقا إلى كل المفاجئات الصوتية التي سأجدها على الشريط عندما يحين ميعاد الاستماع إلى تسجيلاتي. ثم أسبوع إضافي قضيته في مراجعة المادة المسجلة - قرابة العشر ساعات من المادة الصوتية الخام - لأختار أفضل ما فيها.

وهنا سمعت ضحكتها. اعتقدت في البداية أنني أهذي، وأنه شبح الماضي الذي عاد ليطاردني من جديد. ضحكة تبدأ طويلة وممدودة كصفارة حادة وتنتهي بدفقات منفعلة ومتقطعة. بعض أصدقائي كانوا عندما يحاولون مضايقتي يشبهونها بثغاء الماعز الجبلية. أعتقد أنني لن أنسي هذه الضحكة ما حييت..."

قلت وقد أثارت كلماته الأخيرة اهتمامي بالموضوع، بعد أن كنت استمع إليه بنصف تركيز ومن باب الأدب ليس إلا: "هل هي حبيبتك القديمة؟"

"نعم. سمعتها بوضوح في الخلفية وليس في موضع واحد، بل في ثلاثة مواضع مختلفة. إذًا وجدت طريقها إلى

المدينة هي الأخرى. حاولت أن أتجاهل الأمر في البداية – لكن: ألا ترى معي أن حدث مثل هذا يخرج من دائرة الصدفة ويدخل دائرة القضاء والقدر؟ خاصة أنني ودعتها دون أن أترك عنوانا أو طريقة اتصال. ثم تأتي إلى مدينتي وتتحرك في نفس الدائرة التي أتحرك فيها لكن يفشل اللقاء المصيري بيننا ثلاث مرات متتالية؟ ما معنى كل ذلك؟"

عند هذه النقطة كان محدثي قد تمكن من جذب انتباهي كاملا لموضوعه. يالها من مفاجأة جميلة – الدنيا لا يزال فيها أناس يؤمنون بأن الحب قضاء وقدر! كنت أتشوق لمعرفة المزيد. قلت: "وماذا فعلت؟ هل عثرت عليها في النهاية؟"

لكنه نظر إليّ باستهزاء وقال: "يبدو أنك جديد على هذه المدينة. هل تعرف كم بلاغًا عن شخص مفقود أو كلب أو قطة أو طائر تستقبله أقسام الشرطة كل يوم؟ معظمهم لا يعود أبدا. تسألني إذا ما كنا التقينا مرة أخرى في النهاية؟ نعم، حدث. لكن ليس قبل أن أمضي عاما كاملا في البحث عنها. استمعت إلى التسجيلات التي ظهرت فيها مرات ومرات، منقبا عن أصوات جانبية تفصح عن الموقع الذي تمت فيه عملية التسجيل. في أحدهما سمعت في الخلفية صهيل عربة الترام عندما تدخل في منعطف حاد، فتكبح من سرعتها وتصتك فراملها بالقضبان الحديدية. في موضع آخر كان هناك صوت طرق خافت جدا لكنني مع ذلك تمكنت من تحديد ماهيته: إنه صوت بائع الشاورمة عندما يدس قراضته في الصفائح المعدنية

التي تحوي السلاطات المختلفة. وأخيرا كان هناك تسجيل في أحد الحانات. لكن، مرة أخرى، هل تعرف كم منعطفًا وكم خطًا للترام يؤدي إلى كم جهة وكم بائعًا شاورمة وكم حانة هناك في هذه المدينة؟ أمضيت عاما كاملا أعيش بأذناي وأرسم خريطة سمعية لكل شارع وكل حي – لكن دون فائدة..."

"لكن كيف عثرت عليها إذًا؟"

"لم أعثر عليها. هي التي عثرت عليّ. أخيرا وبعد أكثر من عامين، حدث ما كنت أخشى حدوثه طوال هذه المدة: وجدتها فجأة واقفة أمام باب بيتي، تطلب مني الصفح وأن أعود إليها مرة أخرى. على الرغم من كل المحاولات التي بذلتها لم أتمكن من تفادي هذه اللحظة. كنت أتمنى أن أجدها قبل أن تجدني، فأراقبها من بعيد وأعرف رقم هاتفها أو عنوان بيتها، فاتصل بها عن بعد وأطلب منها أن تعود من حيث أتت، لأن هذه المدينة وعلى الرغم من كبرها لن تسعنا نحن الاثنين. لكنني فشلت. وكنت مضطرا مرة أخرى أن أقف أمامها وجها لوجه، أن أصافح يدها الباردة، أن أستمع إلى نواحها وإلى ضحكتها تلك التي تشبه صوت الماعز في أعالي الجبال".

مرآة

في الليلة الثالثة من ليالِ المهرجان طرق الكاتب باب مترجمه الفوري. قال "أريدك أن تترجم بحماسة أقل. شيء ما في صوتك يستفزني" تثاءب المترجم ودعك عينيه.

"ماذا؟"

"مرة أخرى، ولو أني متأكد أنك سمعتني جيدا: أريدك أن تكبح من اندفاعك بعض الشيء أثناء الترجمة"

قالها الكاتب وهو ينطر جسده إلى أعلى واقفا على أطراف أصابعه لجزء من الثانية. يفعل ذلك دائما، كما للتأكيد على كلامه بحركة جسدية حادة. خاصة عندما تكون أعصابه مشدودة.

ليست المرة الأولى التي يدخل فيها في مواجهة مع أحد مترجميه. في المرة الأخيرة التي زار فيها هذا البلد، اختاروا له مترجم من أصل سامٍ، شاب طويل القامة ووسيم، وكان الناس

يظنون في بداية أي لقاء أن المترجم هو الكاتب والكاتب هو المترجم. لا يترددون لحظة، ما أن يروه يقبضون على يده ويرجوها بحماسة، وابن الكلب يبتسم ابتسامة خبيثة ولا يعجل بتصحيح الخطأ. فكر جديا في أن يطلب منهم تغييره. لكن في النهاية صعب عليه الشاب – لم يرغب في قطع أكل عيشه. تحمل اسبوعا من الإهانات ونظرات مترجمه التي بدت له مزدرية أحيانا ومتعاطفة أحيانا أخرى – لكن ذلك النوع من التعاطف الذي لا يختلف كثيرا عن الازدراء في نهاية المطاف.

أما هذه المرة... الأمر غريب. قرر من البداية أنه لن يعرض نفسه لمهزلة شبيهة مرة أخرى، فاشترط على إدارة المهرجان أن يجلس المترجم في كابينة مغلقة بعيد عن الجمهور ويستقبل الحاضرون الترجمة عن طريق سماعات أذن. واطمأن أكثر عندما تعرف على المترجم شخصيا فور وصوله: كان شخصا عاديا وغير جذاب بالمرة... لكن مع كل ذلك يلتف الناس حوله بعد القراءة، يصافحونه ويربتون على كتفه ويهنئونه على أدائه. أما هو، الكاتب، الذي من الفروض أن يكون محط الاهتمام الرئيسي، فيا حيا الله بعض النساء العجائز يقتربن منه في خجل شديد، ثم ينهلن عليه بسيل من الأسئلة والحكايات تعويضا عن الوحدة والملل اللذين يعانين منهما في حياتهن اليومية. عندما طرق باب المترجم في منتصف الليل كان الكيل قد فاض به فعلا. لا. ليس مضطرا لتحمل كل ذلك.

حك المترجم رأسه وقال: "لكن ما هذا الطلب الغريب. ألا تريد أن يعجب الناس بكلامك؟"

"نعم بالطبع، لا تكن سخيفا. لكنني لا أريد أن يعجبوا بطريقة إلقائك".

"لا أفهمك. لكن طريقة إلقائي هي طريقة إلقائك. هل سبق أن قلت لك أنني من أشد المعجبين بك؟ لقد راقبتك جيدا. وشاهدت تسجيلات لك قبل مجيئك. حتى الطريقة التي تحرك بها يديك عندما تتكلم – حفظتها عن ظهر قلب وأستخدمها وأنا جالس في الكابينة. فكل ذلك ينعكس على طريقة أدائي، وإن كان غير مرئي للجمهور".

وليبرهن على ما قال، رفع المترجم يده اليمنى على مستوى رأسه، ثم جعلها ترفرف كجناح عصفورة. أما الكاتب فوقف متسمرا في مكانه، ثاغر الفم. ففي نفس اللحظة التي رأى فيها الآخر يستنسخ حركات يديه أصابته هلوسة مخيفة: أحس كما لو كان ينظر في مرآة، مرآة من لحم ودم. حقا: المترجم كان قصير القامة هو الآخر، أصلع وبدين مثله، ولا فرق بينهما في السن... بعد بضع ثوان، أو دقائق، أو حتى ساعات من الصمت ضغط على نفسه واستجمع آخر ما لديه من طاقة وقال:

"اسمع يا راجل انت. إنها قراءتي وأنا حر فيها. وعندما أطلب منك أن تترجم ترجمة أسوأ يعني تترجم ترجمة أسوأ. مفهوم؟"

لكنه لم يهدأ طوال الليل ولم يغفل له جفن. وعندما رن المنبه كان قد حسم المسألة في ذهنه. ذهب إلى إدارة المهرجان وطلب منهم أن يقرأ نصوصه من كابينة المترجم.

عِمة سوبر ستار

يشعر أن الكرسي الذي يجلس عليه أقرب إلى كرسي كهربائي منه إلى ذلك المقعد الفخم المزركش على طراز الباروك والمكسو بالساتان الأحمر. القاعة تمتلئ شيئا فشيئا بالمشاهدين، مصورو التلفاز يرفعون كاميراتهم الثقيلة على أكتافهم ويصوبونها نحوه كأسلحة البازوكا. والطامة الكبرى: أنهم أرغموه على ارتداء زيّ المقرئين التقليدي، جلباب رمادي وطربوش ملفوف بعمامة بيضاء. المسألة ليست فقط أنه تلقى العشرات من الرسائل الغاضبة التي تهدده بالقتل إن حدث اليوم وفتح فيه ولو بكلمة أو نغمة أو حتى باسم الله الرحمن الرحيم. فبالنسبة له، أينما تلي القرآن فالموت حاضر. منذ أن كان طفلا كانت المناسبات الكئيبة – الجنازة أو الأربعين أو السنوية – هي نقاط التلاقي الوحيدة بينه وبين تلك النغمات الثقيلة الممطوطة منخفضة التردد. وها هو، يا لسخرية القدر!، يجلس على كرسي على خشبة مسرح ويتنحنح ويغرغر ويزغزغ

حنجرته برشفة ماء ويستعد لقراءة بعض الآيات القرآنية. يحس أنه على وشك أن يقرأ الفاتحة على روحه هو شخصيا.

لم يمضِ أكثر من شهرين على ذلك اليوم الموعود، ذلك اللقاء الغريب الذي أدّى به – في تعاقب مخيف للأحداث – إلى حيث هو الآن. قال زائره الغامض: "هي صفقة بسيطة، جميل مقابل جميل. وحاشا أن يكون في نيتنا أن نرغمك على أي شئ. أما ما نريده: أن تجود القرآن في حفل عام، وباللغة الألمانية." كان حينها قاب قوسين أو أدنى من تحقيق حلمه الكبير، وبعد سنوات قضاها كلاجئ غير شرعي وطباخ وعامل نظافة وطالب وصعلوك... هو، مصطفى أحمد حامد، الشهير بظاظا مواليد الدمرداش، كان قد اختير من ضمن العشرة المنافسين على المركز الأول في مسابقة سوبرستار الألمانية. سنتيمترات قليلة بينه وبين المجد. سيغني "لاست كريسماس" لجورج مايكل وينتهي الأمر.

قال زائره الشاب ذو السترة الرمادية الذي أدّعى أنه من طرف وزارة الداخلية: "في المقابل سنهيئ لك الفوز في المسابقة. ما رأيك؟" أحس بغضب أحمر يتصاعد من مصارينه وبصوت داخله يقول: "لا يا حبيبي. موش بالسهولة دي! انت جاي تستكردني؟ ده أنا من الدمرداش يا حلو." قال: "فاهم. هذه إذا الديمقراطية على الطريقة الألمانية؟" ابتسم الآخر ونظر إليه نظرة مستهزئة كمن يتأهب لتفعيص حشرة بقدمه: "طبعا. دعني أقول لك شيئا. أليس القرار في النهاية للجمهور؟ أكنت حقا

تعتقد أنك بشكلك وإسمك وألمانيتك المكسرة لديك فرصة للفوز أمام منافس ألماني؟ لماذا لا؟ لأن الشعب الألماني ببساطة في أعماقه ليس ديمقراطيا. لكن أعدك أنه بإمكاننا أن نجعله ديمقراطيا – بمكالمة تليفونية صغيرة..."

ابن الهرمة. ويبتسم ابتسامة خبيثة وهو يقولها. يدرس مصطفى ملامح زائره من رأسه إلى قدميه. شاب في مثل عمره، أي في بداية الثلاثينيات، أنيق، ربطة عنق وردية ونظارة بلا إطار وشعر مفروق من الجنب. واحد من أبناء الأغنياء الذين يتربون تربية شبه عسكرية في البيت ثم ينجحون نجاحا صاروخيا من سن مبكرة. واحد من هؤلاء الذين ينظرون بتعالٍ إلى كل من حولهم ويبصقون على ظاظا وأمثاله – إلا إذا اقتضت المصلحة غير ذلك.

أغمض عينيه وحاول جاهدا أن يتذكر أي شي مما تعلمه في كلية الدراسات الإسلامية والتي كانت بالنسبة له – كما هو الحال مع ثلث المهاجرين من دول إسلامية في ألمانيا على الأقل – محطة قصيرة وغير مجدية على طريق الصعلكة الأكاديمي الطويل. ما يعرفه بالتأكيد هو أن اللحظة التي يصبح فيها ارتباط القرآن باللغة العربية محلا للتفاوض هي بداية النهاية. ستنهار سطوة المؤسسات الدينية في الشرق الأوسط على الإسلام. تماما كما تراجع النفوذ البابوي عندما ترجم مارتن لوثر الإنجيل إلى الألمانية الدارجة. هو شخصيا ليس متمسكا بالمؤسسات الدينية ولاتعنيه في شيء – فلم يكن

متدينا في حياته قط. فقط يكره أن يعامله الناس على أنه أبله، لا له في الطور ولا في الطحين.

عقد حاجبيه وقال: "لكن الترجمات غير مقفاة. كيف أغنيها؟"

"سنستخدم ترجمة روكرت. هي مقفّاة." عظيم. يبدو أنه ليس الوحيد في هذه الغرفة الذي مر على كلية الدراسات الإسلامية... "لكن المسلمين لن يتقبلوا هذه المسألة. أبدا!"

"بالعكس. أكثر المسلمين المقيمين هنا من أصل تركي ولا يتحدثون العربية من أساسه، بينما الألمانية هي لغتهم الأم. بالعكس. أنا متأكد تماما أنهم سيرحبون بالفكرة، خاصة عندما ندعمها بإعلان الإسلام – الإسلام الأوروبي بالطبع – دينا رسميا للدولة إلى جانب المسيحية..."

وماذا يأتي بعد ذلك؟ القرآن على نغمات البلوز؟

لا يزال مترددا. أحد المنظمين في القاعة يومئ له برأسه – العرض على وشك أن يبدأ. السؤال الذي يحيره: لماذا هو؟ طبعا لأنه صار نجما ومحطّ الأنظار. وغالبا لأنهم درسوا شخصيته وعرفوا أنه من ذلك النوع الذي لن يرفض صفقة مثل هذه. وما يمنعه حقيقة؟ هل لأن حياته ستصبح مهددة؟ ألم يعرض حياته لمخاطر أكبر من هذه في سبيل الوصول إلى هنا؟ يحس بغضب شديد ينفجر بداخله. لماذا لا يتركونه في

حاله – كلهم؟ ما شأنه وكل هذه التعقيدات السياسية؟ هو فنان! ليته صوت بلا جسد أو لون أو لغة.

ثم أغمض عينيه، وغنى. غنى كما لم يغنِ في حياته من قبل.

بورنو

"مفيش حاجة بتحصل في البلد دي..."

قالها سام وهو يرفع زجاجة البيرة إلى فمه ويأخذ رشفة طويلة.

هذه هي اللحظة التي كنت أنتظرها. تتكرر كل يوم. قلت: "سكوووووت!"

ابتسمت بخباثة، نظرت إلى سام ثم إلى مو ثم قلت: "أنا هامثل في فيلم بورنو"

"أفندم؟"

"أيوة، أنا قابلت الزعيم وطلب مني أجيلوا الاستوديو بكرة!"

الزعيم هو لقب شاب من شبان المنطقة، يقال عنه أنه على صلة قوية بالمافيا اللبنانية والمافيا الروسية. تجده دائما جالسا على القهوة على ناصية الشارع الرئيسي، وحوله سرب

من العواطلجية أمثالي. يتوددون إليه، يأمرهم بمَهمات صغيرة كشراء علبة سجائر أو جريدة من الكشك على الجهة المقابلة للشارع. يأملون أن يتوسط لهم عند معارفه ليحصلون على وظيفة ك...، لا أعرف، كسعاة لتجار الحشيش يحومون حول المحطة الرئيسية ويصطادون الزبائن، أو كحراس أبواب للملاهي الليلية في الحي المجاور.

خجلي وثقتي المهتزة بنفسي لم يسمحا لي بالذهاب إلى الزعيم ومحاولة اقتناص نصيبي من الكعكة. كنت أقول لنفسي: "أنت أقبح شبّان الحيّ. كل أصدقائك يأكدون ذلك. سيبصق الزعيم عليك ويلعن آباءك إن حاولت الاقتراب منه." لذا كل ما كنت أفعله هو أن أجلس على مقربة منه على القهوة أتابع ما يجري بعيون جائعة، وعندما يتنبه إلي وأحس أنه يرمقني بنظرة متعالية أغض البصر وأقلب في كوب الشاي الموضوع أمامي بانفعال.

إلى أن جاء ذلك اليوم، يبدو أن مزاجه كان صافيا على غير العادة، إذ وجدته ينادي علي: "انت يله، أيوة انت يا قرد، مالك قاعد هناك كده زي الأهبل؟"

قلت: "سوري، موش قصدي، أصل أنا خالي شغل."

عندما سمعني أتكلم، عقد الزعيم حاجبيه ونظر إلي نظرة فاحصة. ابتسمت بداخلي. لقد اعتدت هذه النوعية من ردود الأفعال. صوتي هو أفضل ما في، صوت ذكوري رخيم، وكثيرا

مـا ينـصعق النـاس وتتفجـر ملامـح وجـوههم دهـشة عنـدما يـسمعوه. لا لأنـه يتعـارض تمامـا مـع جسدي الهزيـل ووجهـي الذي يشبه وجه الضفضعة، بل أعتقد لأن لا أحد ينتبـه إلـى وجودي أصلا قبل أن أفتح فمي لأتكلم.

ثم قصصت على سام كيف عرض عليّ الزعيم المشاركة فـي أحد أفلام البورنو التـي يقوم بإنتاجها. قال حينها: "اوعـى تكون بتتكسف ياد" ضحكت خجلا وانفعالا عندما تذكرت هذه الجملة، وضحك سام معي.

"تخيل يا سام، أنا إللي عمري ما نكت في حياتي هانيك واحدة من بتوع الأفلام دول. واو."

اكفهرّ وجه سام فجأة وقال: "لو منك ما أعيشّ في الوهم يا مان. هي بس هاتشوف وشك وهاتِّف عليك."

تدخل مو بانفعال: "يخرب بيتك إنت موش هتبطل تحبط الواد كدة، أصدقاء آخر زمن! وبعدين أنا سمعت إن إحصائيا أغلبية النسوان بيختاروا الراجل على أساس صوته موش على أساس شكله!"

مـع ذلك أطرقت برأسي وغمغمت: "لأ. سام معاه حق. بلاش أحلم جامد لحسن آخد على دماغي."

في هذه اللحظة رنّ تليفوني المحمول. سمعت صوت نسائي غنج يقول: "هالو. أنا نادين إللي هاعمل معاك الفيلم بكرة. حبيت بس أسمع صوتك..."

يبدو أن ما يقال صحيح مائة بالمائة - أن الإنسان في لحظات الخطر يتدفق الأدرينالين في عروقه ويتحول إلى وحش كاسر. على غير عادتي وجدت نفسي أقول: "ممم صوتك مهيج جدا يا جميل. أومال شكلك هيبقى عامل إزاي. مش قادر أستنى لحد بكرة." سمعتها تبعد التليفون عن فمها وتوشوش شخصا ما يقف إلى جانبها، كلام لم أفهم منه إلا أنها كانت تمدح في صوتي وكم هو قوي وجميل.

في اليوم التالي ذهبت إلى الاستوديو في الميعاد المتفق عليه. صعدت بالأسانسير إلى الطابق العاشر في بناية رمادية لا تبوح على الإطلاق عمّ يجري بداخلها. وجدتها في غرفة الانتظار تدخن سيجارة. عقدت حاجبيها ونظرت إليّ، ثم نظرت إلى الحائط. وضعت ساق عارية فوق الأخرى وحاولت أنا أن أختلس نظرة إلى ما بين ساقيها تحت التنورة القصيرة. تنحنحت وقلت: "مساء الخير". نظرت إلى مندهشة وقالت:

"موش معقولة، تخيلت شكلك مختلف تماما".

لم أعرف ماذا أقول، لذا قلت: "وأنا كمان اتخيلتك مختلفة تماما".

صمتنا. أشعلَت سيجارة أخرى.

للحق لم تكن جميلة إلى هذه الدرجة. مر أكثر من عشرين دقيقة قبل أن يدخل الزعيم ويقودنا إلى غرفة أخرى لنبدأ شغلنا – وفي هذه الدقائق العشرين كنت أختلس النظرات إليها، أتفحص جسدها من بوز جزمتها إلى مفرق شعرها. صرت أقل انفعالا مع كل دقيقة مرت وأكثر قدرة على رؤية الأمور على حقيقتها. قدرت سنها بحوالي أربعين عاما، إحدى هؤلاء النساء العاديات في منتصف العمر اللات أرى منهن المئات يوميا: في الشارع وفي المواصلات العامة وخلف الخزنة في السوبر ماركت وعند الخباز وفي صالونات الحلاقة والصيدليات وأكشاك السجائر. على وجهها علامات القهر وفي عينيها نظرة حزن غير قابلة للتفاوض. كان يمكن أن تكون أما لأحد أصدقائي.

جاء الزعيم وساقنا عبر ممر صغير، كان يضحك ضحكته المتقطعة المتحشرجة المألوفة، فتح لنا الباب وقال بنبرة ساخرة:"خشوا برجليكوا اليمين"، ثم:"أهلا بيكوا في المعمل بتاعي".

لا أبالغ عندما أقول أنني قضيت ثلاث وعشرين من الأربع وعشرين ساعة الماضية محاولا تخيُّل هذه اللحظة وما سيتبعها من لحظات. وحازت الغرفة مسرح الحدث بالنصيب الأكبر من محاولات تنبؤي القلقة المترقبة. هل سيكون السرير سرير ماء، مستديرا ومفروشا بملاءة حمراء كما نراه في الأفلام؟ أم أن الديكور سيكون أكثر واقعية؟ ألم أسمع أحدهم يقول إن هناك

اتجاها فنيًّا عاما لتصوير الأشياء بواقعية أكثر، والبعد عن الخيال المفرط فيه؟

لكن ما كان ينتظرني في "المعمل"، كان بالتأكيد أغرب من الخيال. كانت الغرفة صغيرة جدا وخالية تماما من الأثاث، عدا طاولة خشبية وكرسيين خشبيين في أحد أركانها. وفوق هذه الطاولة رأيت ثلاثة أشياء كان لها مفعول النشادر على الفتى السارح في غيبوبة الترقب الجسدي: شاشة تليفزيونية. جهاز فيديو. وميكروفونين.

من خلفي سمعت الزعيم يضحك ضحكة مجلجلة. التفتُّ إليه فوجدته يرمقني بنظرة مستهزئة. قال:

"تكُنش افتكرت نفسك هاتنيك بجد. هاها. احنا ناس محترمة يا أستاذ. الأمريكان يصوروا ويفجروا زي ما هم عايزين. احنا ما عندناش الكلام ده. احنا نعمل الدوبلاج بلغتنا بس. ياللا شوفوا شغلكوا".

قبل أن يخرج ويرزع الباب وراءه، دس في يد كل واحد منا ورقة عليها الجزء الخاص به من الحوار. ثم ضغط على الأزرار الخاصة بتشغيل التليفزيون والفيديو.

الفيلم كان عبارة عن قصة شاب يذهب إلى بيت صديقه فيجد نفسه وحيدا مع أمه. وبعد تلميحات وإيماءات ولمسات عابرة ينتهي به الأمر الى مضاجعتها.

تعلثمت كثيرا أثناء قراءة النص، خاصة عندما وصلنا إلى المشهد الجنسي. كان عقلي لايزال يعمل جاهدا على استيعاب المفاجأة: ميكروفون وطاولة خشبية بدلا من السرير الأحمر المائي! ومن كان يتخيل أنني سأفقد عذريتي وأبدأ مشواري كعنتر زماني على هذه الطريقة السيريالية؟ ضحكت في نفسي وهززت رأسي وأنا أصدر بعض التأوهات الحذرة تماشيا مع ما يحدث أمامي على الشاشة. نعم، هذه هي حياتي، صوت فقط، بلا صورة. ثم نظرت إلى نادين فوجدتها قد أغلقت عينيها وانهمكت تماما في ارتجال التأوهات مع بعض الكلمات القبيحة المتناثرة هنا وهناك. يا ترى ماذا يدور في ذهنها الآن، وإلي أي فراش ستسافر بخيالها؟

فيك من يكتم السر؟

الدكتور عصام أنا فعلا احترمته. هو الوحيد اللي واجهني بالحقيقة. لما جه كشف على بابا آخر مرة، خدني على جنب وقاللي: "انت عارفه ان أبوك خلاص هيموت قريب، موش كده؟"

طبعا كنت عارفه. بس انها تتقال في وشي كده. ركبي سابت والدموع طفحت في عينيا. بس بالعكس احترمت طريقته المباشرة. اصل احنا منافقين، نقولك الموت ده حاجة طبيعية، وكل نفس وموش عارفه إيه، بس نتحط في الموقف يبقى كله إلا الكلمة دي – لا يمكن تيجي على لساننا.

أما هو فشرح لي مراحل تطور المرض بالضبط. قال إنه لما الورم ينتقل للكبد والكبد يعطل، تبتدي السموم اللي في الجسم تترسب فيه، بعدين المريض يصفر خالص ويخش في غيبوبة. يومين كمان وانتهي الموضوع.

سألته: "يعني تديله كام يوم كمان من النهارده يا دكتور؟" رده كان المختصر المفيد. زي لقمة عيش ناشف تقف في زور الواحد: "أديله... أربعة أيام موش أكتر".

سكتنا احنا الاتنين شوية. بعديها قال وهو بيلم سماعته وأقفال شنطته السامسونايت بترن وهو بيتربسها: "الألم على فكرة هيشد عليه جامد. فيه نقص مورفين في السوق اليومين دول. هاكتبلك على أقوى مسكن موجود. بس ماضحكش عليكي: غالبا موش هايجيب نتيجة".

ما جاش على بالي أي حاجة أقولها تنقذني من اللي هيحصل. بس كلبشت بعينيا في عينيه أحاول أطلع منها أي بنج، أي حاجة. كنت مرعوبة من اللحظة اللي هايمشي فيها ويسيبني لوحدي.

يبدو أن الطريقة اللي بصتله بيها أحرجته. بص للأرض. معاه حق. أكيد موش ناقص تلقيح جتت. أكيد بيشوف حالات زي دي يوماتي. هيلاقيها مني ولا من غيري.

لكن وهو خلاص على الباب لف تاني وقال بعد ما اتحشرج جامد: "ممكن تحاولي تيجيبيله أفيون لو لقيتي سكة... ده ممكن يساعد..."

ضربت بإيدي على صدري وقلت: "أفيون؟ طب وأنا أجيبه منين ده؟"

ساعتها وشه كشر وقال: "لأ موش عارف بقة. أكيد هتلاقي صرفة". ومن غير كلمة زيادة مشي.

بعديها بشوية جه عمي. دخل بيزحف عادي ضاغط عليه تقل كرشه الضخم، إيد ماسكة في الجلابية زي ما تكون بتعصر فيها، وبالتانية شادد وراه مراته اللي جسمها بيلمع زي كورة الديسكو من كتر الترتر إللي على هدومها. دخلوا على بابا وهو نايم على السرير ومفيش، موش فاضل منه حاجة غير شوية جلد وشوية عضم. عمي ضغط على إيده وقال له الكلمتين إياهم: "إن شاء الله ربنا هيقومك بالسلامة. لا يا راجل دانت بقيت زي الحصان أهه. ما شاء الله عليك!"

كويس إن مراته ما قالتش حاجة. لحسن غالبا كنت هاشيط بقى خالص. قعدِت بس تتآلط وتلعب في هدومها وتبص على ضوافرها كل شوية وتبص على السقف.

وبعدين عمي وهو خارج وبينهج ويضغط هَوا من نخاشيشه زي التور – بس من القومة من على الكرسي والكام متر إللي مشيهم لباب البيت – يدفس ميت جنيه في إيدي ويقول: "ما تقلقيش يا بت! عمر الشقي بقي. ده أخويا وأنا عارفه." كنت عاوزة أرميله فلوسه في وشه وأطرده من البيت. بس أعمل إيه بقى.

وبعدين لأ. ده موش بابا اللي انت عارفه. ده موش بابا إللي أي حد يعرفه. دول شوية بواقي بابا. السرير الكبير إللي

كان بيملاه لوحده بقيت دلوقتي أبص مرتين علشان ألاقيه فيه. المرض شفط جسمه خالص، بقى شكله عامل زي أطفال المجاعة. وكله كوم والريحة كوم. بس العتب على برضه. ما حميتهوش ولا غيرتله من بيجي إسبوع.

خلاص موش قادرة. بقالنا أكتر من ستة أشهر على الحال ده. صويت الليالي إللي فاتت خلى دماغي فتافيت خالص. آآآآه. آآآآآآآآآآآآه. كده طول الليل. لما غلبت كبيت قزازة المسكن كلها في القطارة بتاعة الجلوكوز. لحظة بعدها خفت إنه ممكن يروح فيها من الجرعة الزيادة. طب هو كده يستريح. وبصراحة: أنا كمان.

افتكرت ياسر السعيد – واحد صاحب بابا أنا عارفة من شكله كده إنه أكيد ممكن يلاقيلي "سكة". رفعت سماعة التليفون وكلمته. المشكلة إني فعلا ماباطيقوش. تربية شوارع كدة ودايما لما بيجيلنا بيبصلي نظرات مابتعجبنيش. عموما برضه طلعت نمرته وكلمته. ولما عرضت عليه الموضوع رد عليا بضحكته القبيحة إياها. خاللاني أقشعر واحس بالقرف وعاوزة أقفل السكة حالا. بس أعمل إيه بقى.

مفيش ساعتين زمن وكان هنا. هي هي الضحكة الوسخة – سامعاها طالعة من بير السلم. زي ما يكون جاي غرزة مثلا. موش جاي يزور صاحبه إللي بيموت. فتحت لقيته قدامي هو وجمال، واحد تاني صاحب بابا من زمان. ياسر

طول وعرض يسد الباب. ياباي على شكله. عينية مفققفة كدة زي ما تكون هاتنط من وشه. تنط وتاكل في جسمي.

وأول القصيدة كفر.

قال: "ازييك يا قطة؟"

مديت له ايدي علشان أسلم عليه.

رفع حواجبه وبربق جامد بعينيه فبقى شاكله مخيف خالص. قال: "إيه ده؟ مفيش بوسة لعمو؟"

كنت عاوزة أقوله: "موش مالي عينك الحجاب إللي على راسي ده يا إبن الكلب؟ كنت عاوزة أقوله: ممكن لو سمحت، لو سمحت، لو سمحت تعتقني وتخش جوة تدي بابا الجرعة وتريحني؟"

بس ما قولتش أي حاجة من الحاجات دي. بوسته. وبعدين دخّلتهم جوة عند بابا.

قلت وأنا باشاورلهم على السرير: "هو مغيبب معظم الوقت... بس انتوا وحظكوا... ساعات يفوق خمسة كدة ويفتكرني، أو حتى يتكلم معايا..."

ياسر كان خلاص شق طريقه للسرير. "مغيبب يعني ايه؟ استني أنا هاظبطهولك. وله يا اسماعيل!"

وابتدى يضرب على خده زي إللي بيفوّق واحد سكران.

"ولا يا اسماعيل، ركز معايا ياد..."

الظاهر إن المعاملة الخشنة جابت نتيجة فعلا. سمعت صوت بابا طالع ضعفان خالص بيقول:

"أهلا... أهلا"

جمال بقى يزاحم ياسر على السرير.

قال: "ها، عرفك ولا ايه؟"

"عرفني؟ ده يعرفني وهو ميت كمان"

خرجت وجبتلهم كراسي يقعدوا قدام السرير. جمال بقى قاعد ناحيتي. هادي ومع نفسه خالص. راجل شيك كدة بساعة دهب وجزمة لميع وكل شوية يفرد شنبه بصوابعه. بابا حكالي مرة إن أباه كان ترزيًا. وكان وهم شباب دايما يفصله حاجات على آخر موضة. أول واحد يلبس جينز فيهم. ودلوقتى العز باين عليه. عنده مصنع طرمبات وبيصدر لبرّة. كذا مرة يعرض على بابا يشتغل معاه وبابا يرفض.

ياسر طلّع من جيبه لفّة سيلوفان صغيرة. فتحها وفرشها قدامه، فبانت حتة الأفيون البني المحجرة اللي فيها. قطم منها حتة صغيرة. قام من على كرسيه وخد خطوة ناحية بابا، بس وقف فجأة. ضحك وبص ناحية جمال وقال: "ولا نضرب أنا وانت الحتة دي ونديله الحتة الكبيرة... ايه رأيك يا جيمي؟"

جمال ابتسم ابتسامة خجولة وقال: "والله اللي تشوفه يا دكتور..."

"عليا النعمة انت اونطجي... وآدي ياسيدي نصيبك اهه... والحتة الكبيرة، ها، جاهز يا حج اسماعيل؟"

بابا ضحك ضحكة خطف كدة قشعرت لما سمعتها، علشان كانت زي ضحكة مراهق داخل على مغامرة طايشة. ياسر ميل عليه ودفس الحتة بصوابعه في بقه، بعدين رجع ورمي نفسه على كرسيه. قال: "بالشفى إن شاء الله."

ساعتها ضحكوا الثلاثة. المرة دي سمعت ضحكة بابا واضحة بتشاركهم، صوت تقريبا موش آدمي ما بين الشخرة والأنين. حسيت إني عاوزة اضحك وابكي في نفس الوقت. ياترى انت فعلا موجود معانا دلوقتي يابابا؟ ولا انت خلاص، سافرت، سبقت على مكان في علم الغيب؟

وفجأة وبدون مقدمات ياسر قال: "غني يا جيمي!"

جمال، بنفس الابتسامة الخجولة، رد: "يااااه"

الاثنين ولعوا سجاير وبيشربوها باستمتاع واضح. خدودهم محمرة وعيونهم بتلمع زي ما يكونوا هينفجروا تاني في الضحك في أي لحظة.

ياسر أصر على طلبه، قال وهو بيغمز لجمال: "ياللا بقى يا جيمي"

"ماشي يا عم، ما دمت مصمم يعني..."

جمال غمض عينيه، وبحركات مسرحية فرد ظهره ورفع مناخيره وعمل أكنه بيعزف على جيتار.

„Listen!“

اتسرَعت جدا أول لما سمعت صوته. صوت رفيع بناتي بيقول بالانجليزي:

„Listen!“

وقام ياسر – بصوتة القوي التخين – رادد عليه:

„U-LA-LA“

و– تخيلوا – صوت بابا في الخلفية: “U-LA-LA„

وراحوا بعديها تاني في الضحك. لكن جمال ضغط على نفسه علشان يكمل بقية اللحن. جمال:

Do you want to know a secret

ياسر وبابا: U-LA-LA

جمال: Do you promise not to tell

ياسر وبابا: U-LA-LA

دلوقتي ضحكهم وصل لنقطة هستيرية تماما – زي موجة بحر ضخمة تعلى تعلى تعلى...

...وبعدين تتكسر وما يفضلش منها غير توابع صغيرة على شكل تنهيدات وهمهمات وحشرجات.

جمال قال: "زماااان."

بابا هز راسه وضحك.

أما ياسر فبص ناحيتي بعينين دمعت من كتر الضحك وقال: "ما تيجي تقعدي في وسطينا بدل مانت واقفة على الباب كدة يابت."

بصيت لبابا بتردد لقيته مغمض عينيه ومبتسم. قعدت. جمال قال بلهجة بتحاكي محمد رضا في فيلم ٣٠ يوم في السجن: "دو يو براميز نوت تو تيل، يعني فيك من يكتم السر!"

بابا شخر شخرة خفيفة وياسر قفز على الجملة وقال: "بالمناسبة انت كنت عارفة يابت ان أبوك ده كان زير نساء؟" وغمزلي بعينه. كبست شفايفي على بعض وما علقتش.

قال: "يانهار أزرق. كنت تشوفيه بس في حفلة من حفلات البلاك كوتس ولا البيتي شاه!"

جمال اتدخل وقال: "كان رقاصة ووسطه سايب!"

طلعت ضحكة ياسر القبيحة تاني وقال وهو بيبالغ في مط شفايفه مع كل كلمة فتترسم بوسة غليظة كدة:

"Quest que cest le zubr? Quest que cest le bidan?“

انتفض جمال وزعق: "أيوة. فاكرها دي؟ كانوا بيجوا البنات بتوع الليسيه فرانسيه فيخش عليهم بالكلمتين دول. واحنا نسخسخ على روحنا من الضحك! وهما يتدلعوا. ويفتكروه بيعاكسهم. ولا فاهمين حاجة."

قال ياسر وهو بيهز راسه: "كان نجم أبوكِ فعلا. ميغركيش منظره دلوقت".

أول مرة بابا يتكلم بجد في القعدة دي. طلع صوته ضعفان خالص، لكن الأوضة كلها سكتت تماما أول لما فتح بقه... زي ما يكونوا حسوا بتأنيب ضمير على انهم خدوا راحتهم في الكلام. واحد بينه وبين الموت خطوة. لما يتكلم، يبقى أكن صوت إلهي نزل على المكان بحكم أبدي جبار. قال:

"منظر إيه... يابن الشرموطة... اللي انت بتتكلم عنه؟ طب انت عندك... فشل كلوي... وبتاعك ما... وقفش من ييجي ١٠ سنين..."

جمال لمّا سمع الجملة دي رجع انفجر في الضحك تماما. وأنا كمان بصراحة ماعرفتش أمسك نفسي.

أما ياسر فوِّشه انقبض واحمرّ نار، كان باين عليه هيشيط لما قال: "موش صحيح على فكرة الكلام ده. موش صحيح أبدا!"

...

هتوحشني قوي يا بابا...

ساونا، ساونا... حتى النصر

يعلو صوت احمد صروف، أو احمد بيه كما يسميه الكل هنا في النادي، بعدٍ تصاعدي رتيب من واحد الى عشرة، ليعيد الكرَّة ويعيدها كلما وصل للنهاية. امامه بساط صغير من الكاسكيتات الواقية من الشمس فُرش على صفحة مياه حمام السباحة الزرقاء اللامعة. تبرز في المنتصف قبعة حسام بيه الحمراء الفاقعة، وتحتها الرجل بشحمه ولحمه، مئاتُ الارطال من اللحم الابيض المترهل. كم كانت القبعة الحمراء من دواع سخرية رفاقه عندما ارتداها للمرة الاولى، بينما الاخرون يفضلون الالوان الهادئة التي تناسب في رأيهم وقار شيخوختهم. القبعة هدية من ابنته يارا، فحسام بيه لم يكن أبدًا ليعمل حساب مثل هذه الاشياء، لكن ذلك كان قبل إحالته إلى المعاش منذ خمس سنين، وبالأخص قبل أن تتدهور حالته الصحية والنفسية تماما جراء "الاحداث". رجل يصل الى منصب مدير امن احدى المحافظات الكبرى لا يرتقي سلم وزارة الداخلية من

فراغ، بل اقل ما يلزمه من مواصفات القسوة والقدرة على التحمل. رجل كهذا لا يفكر عادة في شراء كاسكيتة تقيه اشعة الشمس بينما يؤدي تمرينات "سويدي" هزلية في حمام النادي – حمراء، رمادية او أيّا كان لونها.

هناك أشياء تتغير، وهناك أشياء لا تتغير أبدا. احمد بيه يواصل العد بايقاعه العسكري المنتظم، لواء شرطة متقاعد هو الاخر. ينتقل الجمع من تمرين القفز في الماء الى تمرين "حجلة البطة." قبعة حسام بيه بهتتها الشمس الحارقة التي تضرب رءوسهم يوميا. يضحك عمرو بيه، وهو أكثرهم حفاظا على لياقته، على حركات حسام بيه المهزومة ويزعق فيه: "شد على جسمك يا خول!"

ويضحك الاخرون.

هناك اشياء تتغير، واشياء يكسوها فقط غبار السنين فتبدو كأشباح ذواتها، مع حفظ الاشكال والالقاب. هكذا يتحدث حمام سباحة نادي المعادي الذي بناه الانجليز عن أيام رفاهية ولت، ببرجولته العريضة التي كان سكان المعادي من موظفي استعمار وتجار يهود وتكنوقراط المان يحتمون بها من حرارة الصيف، يرطبون وجوهم الحمراء المغمورة بالعرق بضربات هواء من جريدة "التايمز" في يدهم، ويستمتعون برشفات البيرة اللذيذة المثلجة.

٢

طريق هشام حسن، او سيادة النائب كما يحلو للكثيرين تسميته هذه الايام، للساونا يمر عبر بوابة حديقة الاطفال المطلة على شارع النادي. على يمين البوابة لوحة ضخمة من الرخام الابيض تعدد رؤساء مجلس ادارة النادي منذ انشائه عام ١٩٢١. يقرأ هشام "هارت وليام... وليامسون جون... كروفورد جون... سيف الله (باشا) يسري... حسن (باشا) مظلوم... طاهر (بك) اللوزي... اللواء احمد تحسين شنن... اللواء احمد عبد المعبود... اللواء ممدوح ابو حسين..." هل ثمة ما يلخص تاريخ مصر في القرن الماضي أفضل من هذه القائمة القصيرة؟ انحسار نفوذ المستعمرين ومن ثم الطبقة الارستقراطية، انتهاءً ببروز نخبة جديدة، ارستقراطية جديدة ان شئت، قوامها رجال الجيش والامن. كم يحتقرهم. زحفوا على النادي كسرب من الجراد ليحولوه الى مستنقع موبوء. فلاحون كلهم! فلاحون وقذارى وأخلاقهم أخلاق شوارع!

يحس هشام بنبضه يرتفع ودفقات سخونة تضرب في جسده. يتذكر كلمات الدكتور بعد عملية القسطرة الاخيرة: لا انفعال. لا اجهاد زائد عن حده. المشي والسباحة بانتظام. لا ملح في الاكل. ولا سمن. واللحمة الحمراء – نو، نو، نو! قائمة لامنتهية من الممنوعات، كأنها حكم بالاعدام على

حياتـه. وكـأي محكـوم عليـه بالإعـدام كانـت لـه امنيـة اخيـرة، صـاغها في شكل سؤال:

"طب والساونا يا دكتور؟"

لكن يبدو ان احكام الاطباء اكثر قسوة من احكام القضاء، فقد جاءه الرد الصارم: "اياااك تهوب ناحية الساونا، ده موضوع مافهوش تهريج!"

الساونا ادمان. لا تفسير اخر لما يدفع بمجموعة ثابتة من الرجال سنهم يتراوح ما بين الثلاثين والسبعين على ارتيادها يوميا، حتى في اشد ايام السنة قيظا، ولو تزامنت مع رمضان، كل ذلك لا يشكل رادعا لمدمني السخونة العنيفة الممزوجة بالسنة البخار اللاسع.

كان هشام محظوظا. فقد ألهته الثورة، التي اندلعت بعد عمليته الجراحية مباشرة، وساعدته على مقاومة الاغراء بالعودة لعاداته القديمة بسهولة نسبية، على الأقل في البداية. فمع الثورة بزغ حلم في الافق كان كفيلا بمواساته على ما فقد من ملذات الحياة: تلك المخلوقات القذرة من قيادات جيش وشرطة، ستفعل معها الثورة مفعول المبيد الحشري مع الحشرات الزاحفة، ستبيدها، ستسحق هؤلاء الفلاحين الاوساخ الى الابد.

لم تكن أشهرًا سهلة، تلك التي أعقبت ثورة الخامس والعشرين. لكنه لم يشعر بالضغط قط. أسس حزبًا جديدا، وخاض باسمه انتخابات برلمان معيبة بشكل فاضح، وكان

الوحيد الذي فاز بمقعد. لكنه تقبل الانتكاسات بصدر رحب، فهو يعرف ان حلمه اكبر من ان يتحقق ما بين يوم وليلة. كلما استفزه رئيس مجلس الشعب بايماءة مستفزة، كلما قطع كلامه ب"وبناء عليه" متعالية، قال لنفسه: اصبر. فالوقت لم يحن بعد.

زاد وزنه قليلا، فهو لا يلتزم بتعليمات "الأكل الخفيف" بصرامة، ووقته لا يسمح بالتريض الا نادرا. احيانا بعض "اللفات" حول مضمار الجري في النادي، او بضعة حارات يسبحها في البيسين. ولا يزال، كما قبل الثورة، يتفادى يوم الجمعة. فهذه هي الاخرى لم يحن وقتها بعد.

الجمعة هو موعد زيارة الساونا الاسبوعية ل أ. ش.، أحد قيادات الداخلية الكبار. او بكلام ادق: كان، قبل ان يحال أ.ش. الى المحاكمة بتهمة قتل المتظاهرين.

لم يسبق لهشام أن شارك في جلسات أ.ش. الأسبوعية بالساونا. لكن ما رواه اصدقاؤه كان كفيلا بابعاده عنها تماما، ف أ.ش. يأتي على حد قولهم بحاشيته، لا ينقصهم إلا الزي الميري، وتتحول جلسات الساونا الى جلسات استماع لدى "حاكم المعادي"، فيصطف الناس لتقديم فروض الطاعة، ولم تكن ثمة مشكلة بالحي إلا وكان لدى أ.ش. حلها بمكالمة تليفونية صغيرة. بناء مخالف؟ ماشي. تلفيق قضية؟ وماله برضو. مشكلة قمامة؟ أ.ش. يحب الحي، يحب روحه

الارستقراطية ويعتبر نفسه من ابنائه الشرعيين، ويحب ان يخدم اهله وناسه. يضحك هشام عندما تتبدى له الصورة الشبه-رسمية للجلسة، الحاكم يستقبل رعيته بالمايوه! حكى أصدقاؤه أيضا أن رجال أ.ش. كانوا يسبقونه إلى الساونا ليتأكدوا من خلوها من المتطفلين، ويرغمون الوجوه الجديدة والشباب على المغادرة بكل تعال ووقاحة، ثم يسدون الفتحة الصغيرة المؤدية الى الساونا خلف الادشاش في غرفة خلع الملابس بكرسي بلاستيكي يجلس عليه احدهم ليرقب الداخل والخارج. لا. ذلك الجو الفاشي الرخيص كان يفوق قدرة هشام على الاحتمال، ولذلك لم يسعَ إلى المشاركة أبدا، ولو من باب الفضول.

لا يعرف بالضبط لماذا استمر على عادته القديمة بعد الثورة، الساونا ممنوعة عليه بالطبع، لكنه على عهده يقاطع حمام السباحة برمته ايام الجمعة، حتى و أ.ش. خلف القضبان، ورغم ما تردد حول اختفاء حاشيته باكملها من النادي، لاسباب واضحة بالطبع. ربما آثر ادخار هذه اللحظة، لحظة الزيارة وقد خلى المكان من زبانية الشرطة وقوارض الجيش، للمستقبل القريب، ليوم تسليم السلطة ربما، او توقيت اخر يكون قلبه قد اطمئن فيه الى ان الدولة الامنية انتهت بلا رجعة. نعم، كان يتوسم فيها لحظة ظفر حقيقية، لكن الظروف لم تواتيه، وخاب امله وانكسر.

٣

يدلف من البوابة الخضراء الحديدية، يلقي التحية على رجل الامن، يلحظ مجموعة من العواجيز بقبعات واقية من الشمس يمارسون تمارين السويدي في المياه. يدخل غرفة الملابس. يلقي على مشرف الساونا – وهو شاب قصير نحيف يناديه الكل بال"نُص" نكاية في قصر قامته – تحية مقتضبة. يرد النص، بعدما اتخذ وضع تمامٍ عسكري:

"صباح الفل يا سيادة النائب!"

"فيه حد في الساونا؟"

يكسر عادته اليوم. اليوم يوم جمعة. منذ أسبوع صدر الحكم ببراءة أ.ش.، بل كل قيادات الداخلية المتهمين ماعدا وزيرهم. بالامس وصل اليه نبأ عودة أ.ش. الى بيته بالمعادي. لازال يعاني من حالة ذهول تام. لم يشكُ لحظة في أن النصر قادم. لكن الحكم بالبراءة جاء ضربة فاقت قدرته على التحمل. كثيرا ما رسم في خياله لحظة دخوله الى الساونا – هو في خياله طبعا، فقد كل همومه الصحية – منتصرا، مسيطرا، وعندما يقابله واحد من هؤلاء الجرذان المعفنين ينظر اليه بتعال ثم يتجاهله: سينقرضون الآن بالانتقاء الطبيعي. لكن حلمه ذاك تبخر بلا رجعة. حكم البراءة سخطه من امبراطور ظافر إلى منتقم أرعن، يذهب ليعلن عن سخطه بيديه بعد أن فشلت كل

السبل الأخرى، بل تحول إلى ما هو أدنى وأتفه من ذلك، تحول إلى غفير بجلابية يحمل بندقية رش رخيصة يحاول بها حماية أعز ما لديه ممن هم فوق القانون، لأنهم هم القانون.

أهذا كل شئ؟ الحقيقة إنه، ولأول مرة منذ اندلاع الثورة، يشعر بتعطش مرعب الى ذلك الاحساس العنيف بالدفء، يشعر بتشنج عضلاته وتحجرها وأن رأسه سينفجر لو لم يسمع على الفور طشة المياه على ماكينة التسخين، لو لم يستنشق رائحة الخشب الرطب وعطر اليوكاليبتوس، لو لم يحس بمسام جسده تتفتح، بل تذوب بفعل السخونة الشديدة كقطعة سمن في فرن عالٍ الحرارة. في مخيلته الآن، يتلذذ باشعتال جسده ويداعب افاق قدرته على الاحتمال، يتحول الى فراشة مجذوبة الى النار التي هي هلاكها، او، يفكر بيأس وسخرية، هو بوعزيزي جديد يسلم نفسه للنار، لكنها نار على طراز المعادي.

لا يتوقع أن يكون أ.ش. نفسه موجودا. أم أن البجاحة وصلت برموز النظام القديم الى هذا الحد؟ لكنه بالتأكيد سيصطدم بعدد لا بأس به من افراد الحاشية. خرجوا من جحورهم بعد ان اطمأنوا الى ان الثورة لم تأت لتبقى. ربما خرجوا قبل ذلك بكثير، لكنه هو فقط الذي كان معميا بحلمه الوردي.

الساونا خالية إلا منه. ااه. صوت الخشب الرطب يطرقع تحته وهو يجلس. كم افتقد كل تفصيلة صغيرة. يسكب ملء

مغرفة من الماء على وحدة التسخين الى جانب الباب، وهي مصممة على هيئة أحجار بركانية محاكاة لطرق التسخين التقليدية، ااه، الطشة المحبوبة التي تنذر بانتشار البخار والمزيد من الدفء العنيف...

٤

هناك أشياء تتغير، وأشياء لا تتغير أبدا.

لا يكاد هشام يصل إلى مرحلة الاسترخاء التام حتى يسمع جلبة شديدة واصوات ضحكات عالية خارج الساونا.

"فين الليمون بتاعي ياد يا نص. بسرعة ياد يا خول. هاتهولي في الساونا بقى"

"تحت أمرك يا معالي الباشا."

ثم يسمع النص يطلق ضحكة أنثوية رفيعة، فقد اعتاد الرواد على زغده في خصره جيئة وذهابا. لحظة وتقتحم الساونا مجموعة الشيوخ التي رآها تؤدي تمرينات السويدي بالخارج. يتقدمهم ثلاثة، رجل شديد البدانة يلبس كاسكيتة حمراء على رأسه وتكسو وجهه علامات البلادة. وآخر أصلع ووقور يبدو أنه أكبرهم سنا. وثالث يحمل في وجهه شاربا مشذبا، ويمشي

فاردا كتفيه كرافعي الأثقال، بينما جسده بالفعل لم يسلم – مثله مثل أجساد الاخرين – من علامات السن والترهل.

ما إن تقع أعين السرب الأول على هشام حتى يهدأ هرجهم قليلا. يقول كبيرهم: "السلام عليكم" بينما يتفحص الزائر الجديد بنظرات حذرة. أما هشام، وقد وصل بفعل السخونة الى حالة من البهجة لم يفسدها ظهور المجموعة، فيقول، رافعا ذراعيه إلى أعلى:

"أهلا أهلا بحماة مصر!"

الرجل ذو الشارب يرمقه بنظرة مستهزئة ويرد: "أهلا سيادة النائب." ثمة ثقل في لسانه، يتكلم دون أن يفتح فمه تقريبا.

يتخذ الثلاثة مواضعهم، الرجل ذو الشارب الى يسار هشام بجوار ماكينة التسخين والكبير الى يمينه، أما البدين فيرزع جسده الثقيل على الطرف الاخر من الدكة الخشبية، لكنه يفعل ذلك بغشامة طفل لم يتعلم الحركة بعد، فينزلق من على حافة الدكة ويقع على الأرض. يضحك الآخران

"اثبت يا سيادة اللواء، اثثثبت!"

يمد له ذو الشارب يده ليساعده على النهوض، لكن البدين يهز رأسه، يهزها ببطء من لم يفق بعد من صدمة قوية، ويغمغم "انا هاقعد هنا بقى وخلاص. اخخخخ."

يهز ذو الشارب رأسه ويضحك. ثم بضربة من يده، التي لاتزال ممدودة، يطيح بالكاسكتة الحمراء من على رأس البدين.

"وحد يخش الساونا بالكاسكتة ياد يا عبيط."

ثم يضيف وقد قفز من مكانه: "طيب، طالما انت هتقعد تحت بقى يبقى انا هاسخّن براحتي."

ويغرف كبشتين من الدلو الخشبي يسكبهما على الماكينة، وسط اعتراضات نصف جادة من هشام والكبير:

"لا لا يا راجل اوعى تتهور"

"انت عاوز تموتنا يا جدع، انت فاكر نفسك في المعسكر"

ينفتح الباب ويدخل اثنان آخران. رجل أسمر ذو قامة قصيرة مدكوكة. وآخر يصغر الجميع بعشرين عاما على الاقل، لكنه يعاني من ضمور في احدى ساقيه. قبل أن يغلق الباب وراءه، يمد قصير القامة رأسه الى الخارج ويزعق

"ياد يا نص يا خول. ماتنساش البيريل ياله"

"حاضر يا سيادة اللواء، حاضر"

يعرف هشام أن هذه ليست المجموعة التي جاء من اجلها. جسده الآن يسبح في فقاعة من الاسترخاء التام. فليكتفي بهذا القدر. رغبته في الانتقام تلاشت تماما ولو الى حين. لكن شئ ما يدعوه للبقاء. شئ ما في هالة البهجة التي تحيط بهؤلاء –

بهجة كبهجة اطفال الشوارع مليئة بالقباحة اللفظية والعنف المبطن المتبادل – يستفزه.

الساونا الآن ممتلئة عن آخرها. وقد فعلت سحرها بالحاضرين، فبدءوا في تبادل القفشات الجنسية بلا حرج. وحده ذو الشارب الذي لم يتأثر على ما يبدو بمفعول السخونة، فهو لا يكف عن التململ في مكانه، ولا تمر دقيقة دون ان يكون قد غرف كبشة جديدة من المياه زاد بها الساونا اشتعالا.

لا يمر وقت طويل قبل ان يتطرق الحديث الى احكام الاسبوع الماضي. يعلو صوت ذو الشارب، يتحدث ولازال بوجه جامد ودون ان يحرك شفتيه. يرمق هشام بنظرة من طرف عينيه ثم يقول:

"طبعا لازم يفرجوا عن الراجل. ده شعب ابن متناكة خول. اهو ده اللي كان ناقص: بلطجية يهجموا على الاقسام والمفروض احنا نقف نطبطب عليهم. وبعدين يقولك انفلات امني وما انفلات امني. أقسم بالله العظيم احنا كنا نخش منطقة من المناطق الوسخة دي، الظابط بس يحط رجله كده ما يسمعش نفس. دلوقتي بقينا ملطشة."

يحس هشام بضربات قلبه تتصاعد وشحنة سخونة قوية تضرب في رأسه، كأنما ضربه احدهم. يمسك بكتف الرجل ويقول، بينما لا تزال نبرة صوته هادئة نسبيا:

"حضرتك باتكلمني أنا موش كدة؟ طب خليني بقى أرد عليك..."

يهز الآخر كتفه ليتخلص من يد هشام ثم يقول، وقد ارتسمت على وجهه علامات المواجهة:

"لا ترد ايه يا عم، هي ناقصاك؟ انتم موش شغالين لوك لوك لوك لوك في المجلس ليل نهار؟ نقطنا بسكاتك احسن."

إضافة إلى ما ظهر عليه بالفعل من أعراض انفعال (ام هو إرهاق؟) يشعر هشام الآن بعثيان شديد. رأسه كرة من لهب. نبضات قلبه في حلقه تطن في اذنيه كضربات طبول افريقية. دوم دوم دوم دوم. يقفز من مكانه متحفزا لكن رأسه يدور فيضطر إلى الجلوس مرة أخرى.

يشعر بيد تربت على كتفه برفق. انه الرجل الاصلع الوقور الى يمينه. ينظر اليه باسما ويقول: "مالك، يا سيادة النائب، فيه حاجة؟"

"لا، أنا كويس، أنا كويس..."

يضحك ذو الشارب ويقول: "ده باينّه افوّر"

يقول الكبير: "اطلع خد دش احسن يا سيادة النائب"

يهز هشام رأسه رافضا بينما يتحاشى النظر إليهم: "والله كويس، كويس"

يمد له الكبير زجاجة مياه نصف ممتلئة ويقول: "طب خد طُش دي على جسمك... خد بقى"

لا يسعُ هشام إلا تنفيذ تعليماته. ينخفض معدل السخونة في جسده قليلا.

يد الكبير على كتفه مرة اخرى ونظرته الباسمة. يقول: "ماتخدش ف بالك يا فندم، دول عالم خولات كلهم، كلهم بيرضعوا من بز مبارك." يهم ذو الشارب بالاعتراض، لكن الكبير يرفسه بقدمه لاسكاته.

لحظتها يسمعون صوت نشيج – كأنين قطة مجروحة – مصدره الرجل البدين المستلقي على ارضية الساونا. الصوت تتخلله غمغمات اشبه بترنيمة، يتضح لهشام انها تكرار ل"حسبي الله ونعم الوكيل. يرفع الكبير ذراعيه يائسا ويقول:

"يا الله، عاجبك كده يا حمدي بيه؟ موش قلنا بلاش كلام في المواضيع دي؟" ثم يميل الى الأمام ليربت على كتف البدين، يقول: "معلهش، ماتزعلش، هدّي نفسك يا سيادة اللوا، معلهش..."

هناك أشياء تتغير، وأشياء يكسوها فقط غبار الزمن وتتحول الى اشباح ذواتها. تخبو، شيئا، فشيئا، فشيئا...

يمين... شمال

مقعد واحد شاغر في محل الكشري ذي الطابقين. يقذف مصطفى بحمولته – المائتي كيلو كلها – عليه دفعة واحدة فيطرقع تحت ثقله. يلهث ملتقطا أنفاسه. صخب تحته في الطابق الأول، ضربات المعدن على المعدن المعهودة بإيقاع منتظم: المكرونة، فالأرز، فالعدس، ثم تبدأ الحلقة من جديد. كلاك كلاك كلاك... كلاك.

النادل صبي رث الثياب، يردد طلب مصطفى زاعقا بأحرف ممدودة، "واحيييييد لووووكس" ثم يرزع الطلب على الطاولة بلا مبالاة. أمام مصطفى شاب عشريني أسمر، الشال الملون مدفوس داخل فتحة الجاكيت بأناقة غير متكلفة. يلتقط شذرات من حديث الشاب على المحمول: "أيوة هافوت على الميدان ساعتين كدة، الإخوة هناك من الليلة. هاقف معاهم شوية."

يتبادلان نظرات حذرة ويمضغان في صمت مشحون. يهدأ مصطفى من الزحمة والمشوار. ينظر حولة فيكتشف أنه جالس فوق مصدر الكشري مباشرة، تلال الأرز والمكرونة. يرقب بعين العصفورة الحركات الميكانيكية للرجل، كلاك كلاك كلاك، كلاك كلاك كلاك. كلاك كلاك كلاك. كلاك كلاك كلاك. من يتحمل عملا مثل هذا؟

"آه والله، دي بهدلة حقيقي..." يكتشف أنه تفوه بخاطره الأخير دون وعي، فرد عليه زميل مجلسه. الآن الآخر أيضا يمد رقبته ليراقب ماكينة الكشري تحت.

بعد لحظة يبتسم الشاب ويقول: "ده لازم أشول..."

"إيه؟"

"بص كده... قافلة عليه حيطة من اليمين. ميعرفش يغرف باليمين..."

للملاحظة وقع غير مفهوم في نفس مصطفى. يضحك بصوت عالٍ ويقول:

"صحيح، صحيح..."

ثم وقد ضرب احساس اقرب إلى النشوة في عروقه، يقف، يميل بجسده العلوى من على الدرابزين الذي يحد طاولته وينادي إلى أسفل:

"يا أستاذ! يا أستاذ!"

"نعم؟"

"أنت أشول؟"

يرد باختصار، ودون أن يخرج عن إيقاعه المعدني "آه"

يعود مصطفى ليسترخي في مقعده وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة طفولية كبيرة.

"ده طلع اشول بجد. يعني ايه؟ بيعملوا اعلان وظيفة "مطلوب واحد أشول"؟ وبيجيبوا الشول دول كلهم منين؟" ثم ينظر إلى الشاب على الجهة المواجهة للطاولة بنظرة شاكرة ويقول: "انت فعلا عندك قوة ملاحظة"

يبتسم الآخر في استحياء ويطرق بناظريه. لكنه ما يلبث أن يرفع عينيه مرة اخرى ويقول، مادا يده عبر الطاولة: "انا اسمي محمد. أنا حرية وعدالة."

يبهت مصطفى لحظة ثم تعود له ابتسامته. يقول: "وأنا مصطفى. الثورة مستمرة. فرصة سعيدة"

يضحك الآخر. في الخلفية ماكينة معدنية تعمل بلا كلل. وصوت النادل وهو يمسح الطاولة ويجمع صحنيهما: "يمين شمال على النعمة انتو عالم فاضية. وعندك واحد لووووكس...".

ربنا موجود

في يوم مشمس كهذا قرر الله أن يخرج عن صمته ويتدخل في شئون عباده. لكنه ما لبث أن فطن جل جلاله إلى أن ظهوره على إحدى صوره المعهودة من قديم الأزل، لما يرتبط به لزاما من ترجيح كفة لغة وأمة وديانة على غيرها، كفيل ببث المزيد من الغمة بين البشر. لذا رأى تعالى أن يخرج على الناس في شكل كلمة بلا جسد وصوت غير مكلوم: على هيئة صفارة إنذار.

في يوم مشمس كهذا نزل "م." من منزله ليتنزه في الحديقة العامة غير البعيدة. كان قد خرج لتوه من نوبة اكتئاب عتية ولم يسمع بعد بما طرأ على الكون من تغيير. يمشي متعنطزا يضرب في الأرض ويختبر متانة نعل حذائه الجلدي الجديد. لولاه – لولا فرحته بشرائه وشغفه لاختباره – لما مرت النوبة بهذه السرعة. يقف لحظة ويخفض نظره إلى قدميه، يمسح بنظراته على الجلد الكستنائي الطري اللامع كمن يهدهد طفلا

رضيعا. ياله من حذاء جميل. مائتا يورو سعر باهظ لكنها ليست خسارة في حذاء كهذا. يأخذ نفسا عميقا راضيا يملأ رئتيه برائحة الورود الربيعية. يمضي إلى الحديقة كالماشي على وسادتين من ريش الأوز الناعم المنفوش.

فجأة. شكة في قلبه تعيد السواد إلى حياته. لايزال كيانه هشا وعرضة للانهيار لأتفه الأسباب. يحتاج بشدة أن يصل إلى الحديقة ويفتح مسامه لشمس الربيع فتطهر ما ترسب بداخله من بلغم الحياة. لكن حصنه ينهار بسرعة وبعد دقيقة أخرى: لا سبيل للالتفاف على الحقيقة. تجحظ عيناه من وقع المفاجأة المؤلمة: هناك عيب لا يغتفر في الحذاء.

رقبة الحذاء الأيسر تكحت في كعبه الخارج. ليس بشكل مؤلم بالضرورة لكنه مستفز بالتأكيد. يتسارع نبضه وتضرب السخونة في جسده وهو قابع مكانه في شلل مؤقت. بين مراكز عصبية مختلفة في دماغه حوار عنيف وشد وجذب. بعضها فطن إلى أن مصدر النغص إحساس يضاهي في قوته وتأثيره ما قد تحدثه نملة تحمل منشارا ميكروسكوبيا من خراب في جزع شجرة كستناء معمرة. لكن... ليس "م." الذي يتهاون مع الصغائر. فما باله بما قد يقع فيه سهوا من استسهال وسذاجة إلا وقد انقلب عليه، فتتحول التفاصيل الدقيقة على وداعتها إلى أورام سرطانية مستفحلة. لذا بدا له بعد ثوان قليلة من النزاع الداخلي أن الذهاب إلى محل الأحذية للمطالبة بنقوده أمر لابد منه.

والحقيقة أنه لولا انكفائه الشديد على ذاته وذبذباتها الدقيقة وتجاهله التام لما حوله لوجد "م." – في هذه الأيام بالذات – في محيطه من دواعي الدهشة والسرور ما هو كفيل بتعزية حتى شخص مريض مثله. فلم يخلو وجه في هذه الأيام من ابتسامة ولو خاطفة، حتى باتت قسمات الوجوه بما تحمله من معانٍ الرضا وصفاء النفس تضاهي أكثر مشاهد جبال الألب سحراً وخلابة. وكانت صفارة الإنذار تنبعث من مواضع مختلفة في محيط "م." وتعلو على إثرها الضحكات والنوادر وتصفيق الأكف على الأكتاف في حميمية، لكنه انشغل عنها ولو إلى حين.

وعندما دخل محل الأحذية كان هناك بائع جديد لا يعرفه فزاد ذلك من ارتباكه مثله مثل كل ما يشكل تهديدا لنمط حياته المألوف. البائع شاب طويل القامة نحيف يلبس بنطالا أحمر "محزق" وفانلة بدون أكمام. كما أن وقفته مائلا بخصره إلى اليسار ساندا معصمه عليه توحي بألاطة غير مبشرة بالمرة.

"عفوا، أريد رد هذه..." قالها "م." وهو يدفع العلبة التي تحوي الحذاء عبر الكاونتر.

انقبضت أسارير الشاب وزفر في ضجر كمن يقول: "هذا كل ما كان ينقصني."

وفي بطء شديد بدى ل"م." متعمدا فتح الكارتونة وأفرغها من محتواها، ثم أخذ يفحص الحذاء باهتمام.

"ماذا ينقصها؟"

تعجب "م." من السؤال فهو يتردد على المكان منذ سنين، واعتاد العاملون نزواته وشكواه التي قد تبدو غامضة، فجرت العادة على أن يجاروه مطيعين اختصارا للوقت.

قال متعلثما: "أريد ردها..."

"أعرف. لقد سبق أن قلت ذلك. على العموم أنا مضطر لرفض طلبك. عليها بعض الوسخ. يبدو أنك قد ارتديتها بالفعل..."

مع أنه قالها بنبرة لامبالاة، إلا أن وقع الكلمات على "م." كان كوقع صهيل خيول مغيرة على معسكر نائم في طمأنينة وسبات. أحس بهستيريا صارخة تتصاعد من أعماقه. كبس على أسنانه ليكبحها فخرج الكلام من فيه مضغوطا ثقيلا.

"وكيف... أجربها... دون أن ألبسها؟"

"كان عليك أن تجربها قبل أن تشتريها. أنا آسف. كم وددت أن أساعدك. لكن لا خيار لي."

في هذه اللحظة سُمع صوت دوي شديد. ليس كصفارة إنذار تقليدية والتي تبدأ على مهل ولها صوت متثائب يتمطؤ في الهواء. بل أقرب إلى صفارة حكم، قصيرة ومضغوطة وقوية، تعلن عن نهاية شئ ما. "م." وضع أصابعه في آذانه بحركة تلقائية.

أما الشاب فوضع يده على فمه في حرج. ثم قال: "آسف. يبدو أنني أخطأت في حقك. سأرد لك النقود." ولما رأى علامات الدهشة على وجه "م." ابتسم في خجل ورفع سبابته في حركة خاطفة مشيرا إلى الفراغ فوقه.

قضب "م." حاجبيه ولم يعرف ما يقول. لحظة ذهول ومرت ثم زاده تصرف الشاب غضبا واشتعالا. كان يداعبه إذن! وكيف يجرؤ على مثل هذا الهراء السخيف؟ ياله من كلب واطئ! لن أعود إلى هذا المكان ما حييت!

وفي لحظة حسم أمره وترك المكان بخطى ثابتة دون أن ينظر خلفه. كاد يعدل عن عزمه عندما انطلق دوي الإنذار مرة أخرى فهمَّ بالاستدارة للاستخبار عما طرأ. لكنه شد على نفسه وعجل من خطوته. كسور ثانية اضافية وكان خارج المحل.

في يوم مشمس كهذا كان الله بين البشر، وحتما سيعود. وكان الناس حينها يمشون في نشوة وذهول ويحييون بعضهم البعض بأن يقول أحدهم: "ربنا موجود"، فيبتسم الآخر ويرد: "حقا، إنه موجود، لم يعد لديّ أدنى شك في ذلك." حتى "م."، أكيد لن يبقى على صممه إلى الأبد.

الفهرس

شوارع الثورة	٩
هابى إينديـنج	١٣
سماعى	٢٩
مرآة	٣٥
عِمة سوبر ستار	٣٩
بورنو	٤٥
فيك من يكتم السر؟	٥٣
ساونا، ساونا... حتى النصر	٦٥
يمين... شمال	٧٩
ربنا موجود	٨٣

ميريت

للحق لم تكن جميلة إلى هذه الدرجة. مر أكثر من عشرين دقيقة قبل أن يدخل الزعيم ويقودنا إلى غرفة أخرى لنبدأ شغلنا - وفي هذه الدقائق العشرين كنت أختلس النظرات إليها، أتفحص جسدها من بوز جزمتها إلى مفرق شعرها. صرت أقل انفعالا مع كل دقيقة مرت وأكثر قدرة على رؤية الأمور على حقيقتها. قدرت سنها بحوالي أربعين عاما، إحدى هؤلاء النساء العاديات في منتصف العمر اللاتي أرى منهن المئات يوميا: في الشارع وفي المواصلات العامة وخلف الخزنة في السوبر ماركت وعند الخباز وفي صالونات الحلاقة والصيدليات وأكشاك السجائر.

على وجهها علامات القهر وفي عينيها نظرة حزن غير قابلة للتفاوض. كان يمكن أن تكون أما لأحد أصدقائي.